جهود العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز
في الحوار مع الآخر
من خلال مشاركاته الدولية
ومناقشاته العلمية

للدكتور

فتحي محمد الزغبي

أستاذ العقيدة والفلسفة

بكلية اصول الدين والدعوة الإسلامية

جامعة الأزهر فرع طنطا

جهود العلامة الدكتور محمد عبدالله دراز في الحوار مع الآخر
من خلال مشاركاته الدولية ومناقشاته العلمية

فتحي محمد أحمد الزغبي
قسم العقيدة والفلسفة، كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا ، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.
البريد الالكتروني : fathyalzoghby.27@azhar.edu.eg

الملخص:

يهدف البحث إلى إبراز دور العلامة الكبير المحقق فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز في الحوار مع الآخر ، وبيان منهجه في البحث والمعالجة ، وطريقته في مناقشة الغربيين ، من المستشرقين والمبشرين وغيرهم، ومجادلتهم بالتي هي أحسن ، وذلك من خلال ما كتبه وقدمه من بحوث في مرحلة الدكتوراه، ومن خلال ما أسهم به من مشاركات فعالة في المؤتمرات العالمية ، والندوات الدولية ، وجاءت الدراسة وصفية تحليلية نقدية حيث استخدمت المنهج الوصفي بجانبيه في العرض والتحليل لجهود العلامة الدكتور دراز ،من خلال مشاركاته القيمة ومناقشاته ، واستخدمت المنهج النقدي فيما قام به في المناقشة والنقد من خلال دفع الشبهات ، ودحض المفتريات التي رددها المستشرقون والمنصرون واعتمدتُ عليهما في كتابة هذا البحث ، وكان من أهم النتائج التي انتهي إليها البحث: بيان دوره في الحوار مع الآخر من خلال دفع الشبهات، ودحض المفتريات، فعرض لكثير من الشبهات والمفتريات التي رددها الكتاب الغربيون في دراساتهم كأنها مسلمات، وتوارثوها عن أسلافهم، الذين نفثوها ونفخوا فيها ، وأن الحرب في نظر الإسلام شر لا يلجأ إليه إلا المضطر، وإن لنا في موقف الرسول في غزوة الحديبية لنموذجاً حسناً لهذا الروح العالي في التسامح والصفح، حرصاً على السلام من جانب الطرف الأقوى، وأن القرآن حين أباح الحرب الدفاعية المشروعة قد ميز تمييزاً واضحاً بين المحاربين وغير المحاربين، فأمر بألا يقاتل إلا المقاتل، ولقد استرشد التشريع الإسلامي بتعاليم النبوة في هذه الشأن، وانتهي الباحث إلي أن الإسلام لا يرمي قط إلى القضاء على أعدائه، ولا إلى الاستيلاء عليهم بالقهر، ولكن إلى تجنب خطرهم، وفي معرض شبهتهم حول تعدد أزواجه – صلى الله عليه وسلم– عنى الدكتور دراز بالدفاع عن النبي– صلى الله عليه وسلم–، ودحض ما أثير حوله من شبهات، و نقض ما ألصق به من مفتريات، وأخيراً يلمس الدكتور دراز جانباً هاماً من جوانب حياة المصطفى– صلى الله عليه وسلم– فيذكر أنه كان من فضل الله أن أحاطت بالرسول هذه النفوس الورعة التقية، لكي تنقل إلينا جانباً عظيماً من سنته، وبصفة خاصة ما يتعلق بتعليم النساء نصف البشرية، فضلاً عن استكمال الدليل على صدقه بشهادتهن عن أخلاقه الحقيقية العميقة في حياته الخاصة ، وينتهي إلى أن كل هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأن الباعث الحقيقي على الزواج هو شيء آخر بعيد كل البعد عن إرضاء الغريزة البهيمية.

الكلمات المفتاحية : دراز ، الندوة العالمية، الندوة العالمية، المستشرقين، السلام، الشبهات .

The efforts the scholar professor Muhammad Abdullah Draz exerted in dialogue with the other through his international participations and scientific discussions

Fathi Muhammd Ahmad Az.Zoughbi
The department of theology and philosophy, faculty of fundamentals of religion and mission in Tanta, Al.Azhar University, Egypt.
Email: fathyalzoghby.27@azhar.edu.eg

Abstract:

This research aims at showing the role the grand scholar professor Muhammad Abdullah Draz exerted in dialogue with the other, his methodology in researching and tackling, and his method in discussing the westerners (those orientalists, missionaries and others), and in discussing with them in a friendly manner. This is through the researches he did during his PHD, and through his effective contributions he made in the universal conferences and international forums. For this, the study came descriptive, analytical and critical that makes use of the descriptive approach with its two sides concerning showing and analyzing the efforts of scholar Draz, through his valuable participations and discussions. Moreover, it applies the critical approach on his discussions and criticism through replying to doubtful matters and refuting lies repeated by those orientalists and christianizers. From the most important conclusions the research reached: Showing the importance of the role he did in dialogue with the other through confronting the doubtful matters and refuting lies, so he tackled many doubtful matters and lies repeated by those westerner writers in their studies as axioms that they inherited from their ancestors who revived and exaggerated them. He also showed that Islam considers war as an evil that no one resort to but that obliged, and that from what the Messenger of Allah (Peace and blessings be upon Him) had done at Ghazwat (the battle of) Al.Hudaibiya we took the good example for that noble soul that enjoys with forgiving and overlooking, this for guaranteeing peace from the stronger party. He also showed that when the Holy Qur'an permitted that defending lawful war, It obviously differentiated between fighters and non-fighters, so It ordered not to fight but whom he fights, and here the Islamic legislation benefited from the prophetic instructions. The researcher concludes that Islam never seeks after destroying the root and branch of the enemies, nor violently having power over them, rather it wants to avoid their danger. Concerning the doubtful matters around the Prophet's polygamy, professor Draz cared with defending the Prophet (PBUH) and refuting these doubtful matters and those attributed lies. Finally, professor Draz tackled an important side from the Prophet's life mentioning that it is from Allah's grace that these pure pious souls gathered around the Prophet (PBUH) so as to narrate to us a noble side from his traditions (Sunnah); especially what has something to do with educating women (half of the humans). Moreover, the completeness of the evidence that proves his truthfulness when they confirmed his true sincere manners in his private life is achieved. He Finally concludes that all of these matters make us believe that the true reason for the Prophet's polygamy is something else; that it is far away from satisfying those animalistic instincts.

Keywords: Draz, the international forum, the orientalists, peace and doubtful matters

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلي آله وأصحابه أجمعين ،

أما بعد :

فإن هذا البحث في الأصل يدخل ضمن موضوعات المحور الرابع ، من محاور المؤتمر الدولي الذي أقامته كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة ، في السادس عشر والسابع عشر من شهر إبريل عام ٢٠٠٧ م، والذي يتحدث في النقطة الثانية منه عن جهود علماء المسلمين في الحوار مع الآخر من خلال علم مقارنة الأديان حديثا، حيث كنت وقتها أستاذا للعقيدة والفلسفة الإسلامية ورئيسا لقسم أصول الدين بكلية الشريعة/جامعة الشارقة ،

و يهدف البحث إلي إبراز دور العلامة الكبير المحقق فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز

(١٨٩٤/١٩٥٨) م (١٣١٢/ ١٣٧٧) هـ في الحوار مع الآخر ، وبيان منهجه في البحث والمعالجة ، وطريقته في مناقشة الغربيين ، من المستشرقين والمبشرين وغيرهم، ومجادلتهم بالتي هي أحسن ، وذلك من خلال ما كتبه وقدمه من بحوث في مرحلة الدكتوراه التي حصل عليها من جامعة السوربون ، بعد أن أعد نفسه إعدادا علميا ، وتهيأ لهذه المرحلة تمام التهيؤ ، ومن خلال ما أسهم به من مشاركات فعالة في المؤتمرات العالمية ، والندوات الدولية ، حيث ألقي مثلا كلمة الأزهر ممثلة للإسلام في مؤتمر الأديان بباريس عام ١٩٣٩، فتحدث عن السلام في الإسلام ،واعتبرت الكلمة الرئيسة والأولي في المؤتمر، وختم حياته الحافلة كذلك بتمثيله للأزهر في الندوة العالمية ، التي عقدت

بلاهور بباكستان في جمادي الآخرة ١٣٧٧/ يناير ١٩٥٨، فقدم فيها بحثا بعنوان (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها)

وكنت أود أن أفصل القول في بيان منهجه في معالجة كثير من القضايا التي قام بمناقشتها ، ولكن لضيق الوقت من ناحية، وكثرة الشواغل العلمية والإدارية ، وبخاصة في الإعداد والتحضير لهذا المؤتمر، من ناحية أخري ، حيث كنت رئيس اللجنة العلمية ورئيس لجنة التحضيرية وكلفت من عميد الكلية وقتها فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الناصر أبو البصل بتسيير أعمال المؤتمر [١] ،

وحرصا مني علي المشاركة فيه ، اكتفيت بعد ذلك ببيان دوره في الحوار مع الآخر من خلال دفع الشبهات، ودحض المفتريات،

واقتصرت علي عرض شبهتين فقط من تلك الشبهات ،

فجاءت الدراسة وصفية تحليلية نقدية ،

حيث استخدمت المنهج الوصفي بجانبيه في العرض والتحليل لجهود العلامة الدكتور دراز ،

من خلال مشاركاته القيمة ومناقشاته الموسوعية في المؤتمرات العالمية والندوات الدولية ، واستخدمت المنهج النقدي فيما قام به العلامة الدكتور دراز في المناقشة والنقد من خلال دفع الشبهات ، ودحض المفتريات التي رددها المستشرقون والمنصرون واعتمدت عليهما في كتابة هذا البحث ،

وفيما يتعلق بخطة البحث التي التزمت بها وسرت عليها فإنها كما يلي :

حيث جاء البحث في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث :

---

(١) حينما رجع الأستاذ الدكتور أبو البصل إلي المملكة الأردنية الهاشمية تولي رئاسة جامعة العلوم الإسلامية العالمية بعمان ، ثم صار الآن وزيرا للأوقاف الأردنية

في المقدمة بينت أهمية البحث وأسباب اختيار الموضوع ، ومنهج البحث وخطته

التمهيد : نبذة مختصرة عن مولد الدكتور محمد عبد الله دراز ، ونشأته ، وحياته

المبحث الأول : جهود الدكتور دراز في الحوار مع الآخر في مرحلة الدكتوراه

المبحث الثاني:جهود الدكتور دراز في الحوار من خلال مشاركته في المؤتمر العالمي للأديان

المبحث الثالث: جهود الدكتور دراز في الحوار من خلال مشاركته في الندوة العالمية للأديان

المبحث الرابع : جهود الدكتور دراز في الحوار من خلال دفع الشبهات ، ودحض المفتريات

وقد توسعت في عرض هذه الجهود وتحليلها ، وأكثرت من التعليقات والتعقيبات ،

وأسأل الله سبحانه التوفيق والرشاد والسداد في القول والعمل ،

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ،

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب

فتحي محمد الزغبي

التمهيد

نبذة مختصرة عن مولد العلامة الدكتور دراز ونشأته وحياته

هو علمٌ شامخٌ من أعلام النهضة الإسلامية البارزين في مصر في القرن الرابع عشر الهجري .نشأ في بيتٍ عامرٍ بالتقوى والصلاح، والعلم والعرفان، والسماحة والعطاء، محفوفًا برعاية من والده الفاضل الشيخ عبد الله دَراز – شيخ علماء دمياط – فاقتبس الفتى الناشئ من فضائل والده المروءة والشهامة، وحب العلم والصلاح. من أبرز صفاته الشخصية: الفطنة، والذكاء، والحلم والأناة، والتواضع، والوداعة والوفاء، والجرأة والصلابة بالحق، والإقدام، ومواقفه شهيرةٌ في نشر رسالة الإسلام، والعمل على تبليغها في عالم الغرب.– كانت ولادته في قرية محلة دياي في محافظة كفر الشيخ سنة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م. –

حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره.– عرف من صغر سنه بالفطنة والذكاء، والنباهة والطموح، وتساميه على أقرانه في العلم والمعرفة، وتفوقه عليهم في أكثر مراحل الدراسة.– انتقل إلى الإسكندرية في أوائل سنة ١٩٠٥م. –

التحق بالمعهد الديني في مدينة الإسكندرية، وحاز على الشهادة الثانوية فيها – أجازهُ العلامة الشِّنقيطي بالتحديث، وهو في طريقه لأداء فريضة الحج في القاهرة. – حصل على شهادة العالمية النظامية سنة ١٩١٦م. – عُيِّن مدرسًا عقب تخرجه بمعهد الإسكندرية الديني.–

انصرف إلى دراسة اللغة الفرنسية في المدارس الليلية، حتى كان أول الناجحين في شهادة القسم العالي منها سنة ١٩١٩م. – اختير للتدريس بالقسم العربي في الأزهر الشريف سنة ١٩٢٨م، ثم بقسم التخصص سنة ١٩٢٩م، ثم بالكليات الأزهرية سنة ١٩٣٠م، ثم في قسم التخصص بها. –

صنف فضيلته كتابه "المختار من كنوز السنة " سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م عندما

عهد إليه بتدريس مادتي التفسير والحديث في كلية أصول الدين. – أشرف على طباعة تعليق والده على كتاب "الموافقات للشاطبي". – ابتدأ فضيلته بكتابة بحوث في القرآن الكريم، قدَّمها بين يدي التفسير، فأملاها على طلاب كلية أصول الدين، بالجامع الأزهر المعمور سنة ١٣٥٢هـ/١٩٣٢م، – قصد فضيلته بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج سنة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م. _

اختير مبعوثًا من الجامعة الأزهرية إلى فرنسا للالتحاق بجامعة السوربون في باريس، فأمضى خارج القطر المصري اثني عشر عامًا في غرة ربيع الأول سنة ١٣٥٥هـ إلى سلخ ربيع الثاني ١٣٦٧هـ (مارس ١٩٣٧م – آذار ١٩٤٨م) . – حاز على شهادة الليسانس من السوربون سنة ١٩٤٠م. –ابتدأ فضيلته بتحضير رسالتي الدكتوراه في اللغة الفرنسية، الأولى عنوانها: "القرآن" (Koran) ، والثانية ترجم المؤلف عنوانها في "النبأ العظيم" الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م "دستور الأخلاق بالقرآن" " La Morale Koran" والترجمة الحرفية لها "أخلاق القرآن".–

عاد فضيلته من فرنسا إلى مصر في شهر آذار ١٩٤٨م. – حصل فضيلته على عضوية جماعة كبار العلماء في مصر سنة ١٩٤٩م. – أمضى فضيلته تسعة أعوام أخر في مصر، ونيطت به شؤون علميةٌ، من أبرزها: إلقاء محاضرات في علم تاريخ الأديان بكلية الآداب بجامعة القاهرة. ،محاضرات في فلسفة الأخلاق بقسم التخصص بالجامعة الأزهرية. ،

وخلال مكث فضيلته في مصر أُسْنِدَ إليه العملُ في كثيرٍ من اللجان، بالإضافة إلى قيامه بالتدريس بالجامعة منها: العمل في اللجنة العليا السياسية للتعليم. ،العمل في المجلس الأعلى للإذاعة. ، العمل في اللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر المعمور. إلى جانب اختياره في المؤتمرات الدولية والعلمية ممثلاً لمصر والأزهر الشريف.–

عرض على سماحته أن يتولى مشيخة الأزهر الشريف في سنة ١٩٥٣م فرفضها

بسبب القيود التي كان يتضمنها العرض اعتزازًا بدين الله وإخلاصًا لربه ومعتقداته.،

وصدرت لفضيلته مجموعة من المؤلفات القيمة منها باللغة العربية كتاب "الدين" وهو بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، وقد نشره عام ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، والكتاب جديدٌ في موضوعه ومادته ومنهجه باللغة العربية. ،

ومن بحوثه باللغتين العربية والفرنسية: مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام، والربا في نظر القانون الإسلامي، والأزهر الجامعة القديمة الحديثة. –

ثم استجاب فضيلته لما كان يتلقاه من أبنائه الطلبة، وزملائه الأساتذة من رسائل لمتابعة بحوثه في القرآن التي ابتدأ بها، ولم يتيسر له إتمامها وطبعها، لظروف خاصة في حينها أحاطت به إلى أن آذن الله بالعون، فأنجز ما ابتدأ به وأصدرها تحت عنوان "النبأ العظيم" وأخذ هذا الكتاب أهبته للخروج من نطاق الثقافة الجامعية إلى فضاء الثقافة العالمية كي يتحدث إلى كل عقلٍ واعٍ ناقدٍ، وإلى كل ذي قلبٍ بصيرٍ.–

ومن مؤلفاته: "نظرات في الإسلام" إلى جانب الجمِّ الغفير من مقالاته الممتعة، الغنية بالأفكار الواسعة، التي كان يمد بها المجلات العلمية والأدبية ومحاضراته التي كان يطالع بها المسلمين من محطة الإذاعة، فترطب القلوب الجافة، وتنير الطريق إلى الحق والخير.

–ومما عرف عنه رحمه الله أنه كان يقرأ كل يوم سدس القرآن، وما ترك هذه العادة يومًا واحدًا حتى في إبان محنة الحرب التي عاصرها في فرنسا، وما كنت تراه إذا اختلى بنفسه إلا مصليًّا أو قارئًا للقرآن.–

استمر فضيلته في نشاطاته المختلفة عاملاً، وباهتماماته في معالجة الشؤون الإسلامية منصرفًا حتى وافاه الأجل المحتوم، ملبيًّا دعوة ربه، ليأنس بجواره ورضوانه عشية يوم الاثنين السادس عشر من شهر جمادى الثانية سنة ١٣٧٧هـ، الموافق للسادس من شهر كانون الثاني سنة ١٩٥٨م، عندما كان في لاهور بباكستان ممثلاً

لمصر، في الندوة العالمية للأديان ، فتناقلت وكالات الأنباء نبأ وفاته، وأذاعت محطات الإذاعة نعيه في جميع أنحاء العالم، فبكاه الأزهر، وافتقد العالم الإسلامي عالمًا عاملاً مجاهدًا جليلاً. ،

حيث يقول عنه أحد تلاميذه : رأيت أنه «دراز» ينطبق عليه ما كان يكتبه الأولون عن علمائهم ومؤلفيهم, مثل: العالم العلامة, الحبر البحر العلامة, فهذا ما يمكن أن نقوله عن الشيخ ،

ويقول: كان يتدفق في معارفه كأنما يغرف من بحر, ويبهر سامعه كأن كلامه السحر، ويشرح الدقائق فيجليها ، والغوامض فيكشف عن خوافيها ، ويبين معانيها ،

ويقول عنه أيضا: لقد أحاط بعلوم الدين من التفسير والحديث والتوحيد والأصول والفقه ، وبعلوم اللغة من النحو والصرف والبلاغة، وبالأدب وتاريخه ، وبالعلوم الإنسانية العصرية ،

ويقول: كان الشيخ دراز علما من أعلام الفكر، وإماما من أئمة الدين، وبحرا من بحور العلم، وجمع حقا بين الأصالة والمعاصرة ، فإن شئت نسبته إلى جامع الأزهر فهو ابنه البار ، وإن شئت أن تنسبه إلى جامعة «السربون» فهو من خريجيها الذين تعتز بهم ، وتفخر بانتمائهم إليها ،

وترجم له الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين) تحت عنوان :

(محمد عبد الله دراز باحث منهجي متفرد) ومما قال فيه :رزق الدكتور محمد عبد الله دراز نباهة ساطعة في الدوائر العلمية ، لأن الرجل كان طرازا خاصا من المفكرين حيث لم يكن يكتب غير الجديد الطريف ، حيث لم يسمع به القارئ من قبل ، مهما تنوعت ثقافته و اتسع إدراكه ، لقد كان يقدر تبعة القلم تقدير العالم الطامح المشرئب للكمال ، فهو لا يدرس غير المفيد النافع ، و لا يؤلف في غير المجهول الذي

تتطلع الأنظار إلى كل كلمة من كلماته ! لذلك كان محمد عبد الله دراز نمطا نادرا فيما يكتب ، إنه يؤثر البحث الهادئ دون عجلة ، و يضع الخطة المحكمة دون تسرع ، و لا يهمه طال الأمد أم قصر ، إن الذي يهمه جدا أن يستخرج من المعلوم مجهولا ،و أن يكتب في موضوع قد اشتهر بين الناس ليأتي بما يجهل الناس ، لذلك عرفه الصفوة من الدارسين فتتبعوا آثاره في اللغتين العربية و الفرنسية ، و تلمسوه في مظان البحث ، فإذا مر وقت ما دون أن ينفحهم ببعض آثاره تشوقوا إليه مستوحشين ، و أخذوا يترقبون كلماته ارتقاب الغيث عند الظمأ

وهو رحمه الله دائما يصدقهم الوعد ، فيشرق عليهم بما يمتع و يقنع و يشبع ، لذلك كانت الكارثة مروعة حين سافر إلى المؤتمر الإسلامي بلاهور ، ليلقي بعض ما عرف من آياته في حفل إسلامي مشهود ثم جاءت الأنباء بموته المفاجئ فكان لنعيه حسرة دائمة في نفوس من يعرفون أن الرجل قليل النظر في إبداعه الفكري و أنه نسيج وحده كاتبا و مؤلفا و أستاذا بالجامعات

المبحث الأول

جهوده في الحوار مع الآخر من خلال رسالته للدكتوراه

لو رجعنا إلى حياة العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز، وسيرته الشخصية، وتأملنا في أحداثها ونقلاتها لابد أن ندرك مدى الجهود والخطط التي رسمها منذ أمد بعيد لنشر رسالة الإسلام في العالم الغربي

فقد كانت نشأته العلمية رحمه الله – كما سبق أن أشرت – فريدة في بابها، حيث ولد في بيت علم وخلق وورع، وكان والده الشيخ الكبير الأستاذ عبد الله دراز من كبار علماء الأزهر المشار إلى تضلعهم العلمي، وصلاحهم الخلقي، وقد ولد نجله سنة ١٨٩٤م، وسرعان ما تفتحت عيناه على زملاء أبيه يغشون منزله كل ليلة لدراسة كتب العلم، والحديث في مسائل الإصلاح الديني. وطبيعي أن يلتحق ولده بالأزهر بعد أن حفظ كتاب الله، واستظهر بعض المتون العلمية الذائعة لوقته، وقد ظهرت دلائل نبوغه إذ كان متقدما في امتحاناته السنوية حتى نال شهادة العالمية سنة ١٩١٦م، وعين مدرسا بالأزهر، إذ هو الأول في ترتيب الامتحان [١] .

ولعل إتقانه للفرنسية إبان طلبه للعلم بالأزهر الشريف – حيث حذقها في ثلاث سنوات – كان نوعا من الاستعداد لذلك اليوم الذي يقوم فيه بواجبه العلمي والديني، فقد سافر إلى فرنسا عام ١٩٣٦م في بعثة أزهرية ، وما إن وطئت قدمه أرض فرنسا حتى بدأ في تحقيق خطته ، ولم ينتهج الطريق السهلة التي انتهجها غيره بالشروع في تحضير رسالة الدكتوراه رأسا، بل فضل أن يسير في الطريق الأكاديمي من بدايته، ويفعل ما يفعله طلاب العلم من الفرنسيين الذين يعدون أنفسهم إعدادا أكاديميا رصينا، فالتحق بالسور بون للتحضير لدرجة الليسانس، ودرس الفلسفة، والمنطق والأخلاق، وعلم

---

(١) راجع النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين للدكتور محمد رجب البيومي ج٢ص٢٤٢ دار القلم دمشق الدار الشامية بيروت الطبعة الأولي ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م .

النفس وتاريخ الأديان وعلم الاجتماع على أيدي أساتذة السوربون والكوليج دي فرانس من أمثال ماسينيون، وليفي بروفنسال، ولوسن، وفالون، وفو كونيه

ويجد القارئ أثر هذا التكوين العلمي الرصين في رسالته حيث لم يكتف بتوضيح وجهة النظر الإسلامية، بل كان يجليها بمقارنتها بآراء المفكرين والفلاسفة، وكان لا يترك مناسبة إلا استعرض فيها رأي عالم من علماء الغرب، أو نظرية من النظريات السائدة، ثم يبين ما في هذه النظرية أو في ذلك الرأي من القصور أو خطأ، ويعقب ذلك ببيان كمال النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم [١] .

ومعنى ذلك أن الدكتور محمد عبد الله دراز حين تهيأ لإعداد رسالة الدكتوراه في الفلسفة بجامعة السوربون لم يحتطب في حبل المستشرقين، كما نعهد لدى كثير من المبعوثين الذين يخضعون إلى توجيهات مريبة، فيكتبون عن الإسلام والعربية ما يرضى نزعات من يشرفون على رسائلهم، وفيهم من يشتط فيعبر عن كل ما يودون إذاعته من أراجيف، لينال الحظوة لدى قوم يسوءهم أن يظهر الإسلام في مظهره الشريف

لقد قرر دراز أنه مبعوث الأزهر، وأن عليه أن يصحح أخطاء من جحدوا الإسلام عن عمد أو جهل ، وما دام لديه المنطق الصحيح، فخير له أن يخوض المعركة مع خصومه ، الذين هم في الوقت نفسه أساتذته الفاحصون والمشرفون ، وإليهم يرجع الأمر في تقدير الرسالة قبولا أو رفضا! [٢] .

لذلك تقدم برسالتين للمناقشة :

رسالة رئيسة وأساسية عن الفلسفة الأخلاقية في القرآن وقد ترجمت إلى اللغة العربية بعنوان: ((دستور الأخلاق في القرآن)) دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن،

---

(١) راجع مقدمة الدكتور السيد محمد بدوى لكتاب دستور الأخلاق فى القرآن ص ح مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة العاشرة١٤١٨ه/١٩٩٨م

(٢) راجع النهضة الإسلامية للدكتور البيومى ج٢ ص٢٤٧-٢٤٨

ملحق بها تصنيف للآيات المختارة التي تكون الدستور الكامل للأخلاق العملية [١] .

ورسالة فرعية تحت عنوان ((المدخل إلى القرآن الكريم)) ترجمت أيضا بنفس العنوان [٢] .

وقد استغرقت كتابة الرسالتين ما يقرب من ست سنوات، ويبدو أن العالم الجليل قد شرع فيها في عام ١٩٤١م بعد أن انتهت حملة فرنسا، وعاد إلى باريس بعد سنة أمضاها في بوردو (بجنوب غرب فرنسا) حين اقتربت الجيوش النازية من العاصمة الفرنسية ، وأصبح سقوطها وشيكا.

وإذا أضفنا إلى هذه السنوات الست خمس سنوات قبلها أمضاها الأستاذ في التعرف على مناهج العلوم في الغرب وتحضير درجة الليسانس، فإنه يكون قد أمضى ما بين إعداد العدة وتنفيذ مشروعه حوالي أحد عشر عاما، ولم تكن هذه بالفترة الطويلة إذا قدرنا ما اكتنفها من سنوات الحرب العصيبة، وما أثارته هذه الحرب من مشكلات مادية ونفسية كان الأستاذ يتحمل عبئها، ويحاول إبعادها عن أسرته الكبيرة التي صحبته في غربته.

ويذكر الدكتور السيد محمد بدوى الذي حظي بشرف مصاهرته أنه اضطر–أثناء هجوم الحلفاء لتحرير فرنسا– لقضاء أيام طويلة مع أسرته في مخبأ تحت الأرض، كان يجمع فيه أوراقه التي يحرص عليها، ويشتغل وسط القنابل التي كانت تدوي من حوله، على ضوء شمعة، أو مصباح خافت وتمت مناقشة الرسالتين : الأصلية والفرعية اللتين كتبهما بالفرنسية أمام لجنة مكونة من خمسة من أساتذة السوربون والكوليج دى فرانس

---

(١) قام بتعريبها وتحقيقها والتعليق عليها الدكتور عبد الصبور شاهين، وقام بمراجعتها الدكتور السيد محمد بدوى، طبع ونشر مؤسسة الرسالة بيروت١٩٧٣م وكانت النسخة الفرنسية قد طبعت على حساب مشيخة الأزهر الشريف عام ١٩٥٠

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم؛ عرض تاريخي وتحليل مقارن للدكتور محمد عبدا لله دراز ترجمة محمد عبد العظيم مراجعة د/السيد بدوى دار القلم الكويت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م

في ١٩٤٧/١٢/١٥م، ونال بها درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة السوربون بباريس [١] .

ومن الإنصاف أن نذكر أن منطق الدكتور دراز كان من القوة بحيث ألزم مناقشيه بأن يمنحوه مرتبة الشرف الأولى من دكتوراه الدولة! وهي أعلى الدرجات العلمية في فرنسا، ويرجع ذلك إلى أن الرسالة الرئيسة قد غيرت المفهوم السائد عن الفلسفة الإسلامية بنوع عام، وعن فلسفة الأخلاق بنوع خاص، إذ كان الشائع المتداول في دوائر الاستشراق، أن مفهوم الفلسفة الإسلامية ينحصر في المترجمات الإغريقية دون زيادة، فالعرب المسلمون مترجمون لا مؤصلون، فجاءت هذه الرسالة لتثبت أصالة الفكر الإسلامي الفلسفي، ولتعد القرآن الكريم منبعه الأول. كما أن الأخلاق الإسلامية لدى هؤلاء لم توصف بغير مجموعة من العظات والنصائح لا تخضع لفكرة شاملة، ولا تتقيد بمنطق عام، فجاء القسم النظري من الرسالة ليؤكد قوة النظرة الفلسفية لدى المسلمين، وهي نظرة جديدة تستمد عناصرها من القرآن، ولا تعتمد على وافد من الترجمات! [٢] .

هدفه من كتابة الرسالة الرئيسة:

وكان الذي حمل الدكتور دراز على كتابة هذه الرسالة الأولى أنه بالنظرة السريعة إلى مؤلفات علم الأخلاق العام– التي كتبها علماء غربيون– نستطيع أن نلحظ فراغا هائلا وعميقا، نشأ عن صمتهم المطلق عن علم الأخلاق القرآني، حيث تذكر هذه المؤلفات باختصار، أو بإفاضة المبادئ الأخلاقية، كما ارتأتها الوثنية الإغريقية، ثم أديان اليهودية والمسيحية، ولكنها حين تنتهي من عرض هذه المراحل الثلاث، نجدها تنقلنا بغتة إلى العصور الحديثة ، في أوربا، مغفلة كل ما يمس الدستور الأخلاقي في الإسلام، مع أن الإضافة القرآنية في هذا الباب ذات قيمة لا تقدر، ولسوف يفيد منها تاريخ النظريات الأخلاقية سعة وعمقا، وتوافقا، كما تفيد المشكلة الأخلاقية ذاتها منها، في حل مصاعبها،

---

(١) راجع تقديمه لدستور الأخلاق ص ح ص ط

(٢) راجع النهضة الإسلامية للدكتور البيومي ج ٢ص٢٤٩–٢٥٠

سواء في ذلك المصاعب المتجددة والدائمة. ويرى أن إغفال نظرية الأخلاق في الإسلام خسارة ضخمة،

ثم يشير الدكتور دراز إلى أنه قد وجدت محاولات مبتورة في هذا المجال، حيث جاء مضمونها بعيدا عن النظرية الأخلاقية الصادقة في كتاب الله، فمن حيث الإطار أغفل الباحثون الجانب النظري من المسألة، فليس هناك عالم أوربي واحد حاول أن يستخلص من القرآن مبادئه الخلقية العامة، ومن حيث المضمون فقد رجع هؤلاء إلى ترجمات غير صحيحة، وإلى تلخيصات مشوهة فكتبوا بتأثيرها غير الصحيح [١] .

ولذلك فإن الدكتور دراز رأى أنه من الضروري أن يتناول الموضوع من جديد، وأن يعالجه تبعا لمنهج أكثر سلامة، من أجل تصحيح هذه الأخطاء، وملء هذه الفجوة في المكتبة الأوربية، وحتى يرى علماء الغرب الوجه الحقيقي للأخلاق القرآنية، ويقول: ((وذلكم في الواقع هو هدفنا الأساسي من عملنا هذا)) [٢] .

هدفه من كتابة الرسالة الفرعية:

أما الرسالة الفرعية (مدخل إلى القرآن الكريم) ، فقد كتبت لتصحيح الأخطاء المتداولة في أوربا عن كتاب الله، وفيمن تعرض الدكتور دراز إلى تخطئتهم، أساتذته في جامعة السوربون، وأعلام الفكر الاستشراقى ممن رزقوا دويا رنانا في بحوثهم الذائعة، وما حفل الأستاذ بغضب أحد، إذ كانت لهجته المهذبة، وأدلته المقنعة كافية بأن يكبت كل انفعال مضاد [٣] .

يذكر الدكتور دراز في مقدمة هذه الرسالة أنه بعد عرض نقاط تاريخية لا غني عنها – أضفناها بناء علي اقتراح وجيه من المسيو موريس باترونييه دي جانديالك الأستاذ

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في مقدمة الدكتور دراز لرسالته ص٢-٣

(٢) راجع المصدر السابق ص٤

(٣) راجع النهضة الإسلامية ج ٢ ص ٢٥٠

بالسوربون – فإن الموضوع الجوهري لبحثنا هو عرض رسالة القرآن في جملتها كما يعرضها القرآن نفسه لا كما وردت خلال الأحكام أو التفسيرات أو التطبيقات التي اختلفت نسبة إخلاصها عبر التاريخ. وسوف نقابل في طريقنا بشأن هذا الكتاب المقدس إما بعض الأحكام القاسية فنصححها ، أو بعض الاستنتاجات العاجلة فنقومها. وفي كل هذا سنترك النص القرآني ليتولى الدفاع بنفسه عن نفسه ويقدم الحجة تلو الحجة. وتكاد وساطتنا تنحصر في الربط والتنسيق بطريقة منطقية بين أجزاء هذا الدفاع، تاركين للقارئ الفرصة ليقدر بنفسه قيمة هذه الحجج تاريخيا وفلسفيا.

فالدراسة إذن – كما يقول الدكتور دراز – دراسة موضوعية للقرآن بقدر ما يستطيع أي مفكر أن يتجرد من ظروفه الذاتية الخاصة. على أن ذلك قد لا يمنع أن ينعكس دور الدفاع الذي نقوم به على بعض عباراتنا فيصبغها بصبغة الحماس أو بلهجة الإقناع. ولكن ذلك لا يعدو أن يكون انعكاس الأصل في المرآة وليس شيئا جديدا نابعا من طريقتنا في التفكير.ويؤكد الدكتور دراز علي نقطة شديدة الأهمية فيما يتعلق بدوره في الحوار مع الآخر منطلقا من رسالة الإسلام العالمية ، ودعوة القرآن الموجهة إلي العالمين ، فيذكر أنه جدير بالملاحظة أن استخلاص فكرة القرآن من غلافها وإخراجها على هذا النحو من إطارها المحلي لتقريبها إلى الفكر الأوربي البعيد عن اللغة العربية ما هو إلا تحقيق لجزء من رسالته الحقيقية.

ويرجع ذلك إلي أن القرآن يقصد الإنسان حيث يكون وإلى أي جنس ينتمي، وذلك حين يوجه نداءه إلى العقل والذوق السليم والشعور الإنساني النبيل. إنها دعوة عالمية تهدف إلى تطهير العادات ، وتوضيح العقائد والتقريب بينها ، وإسقاط الحواجز العنصرية والوطنية ، وإحلال قانون الحق والعدل محل قانون القوة الغاشمة.

ويري أنه فضلا عن الإسهام في المجهود الفلسفي العالمي. فإن مدي العون الذي يمكن أن تقدمه دراسة مثل هذه المبادئ السامية، في زحمة هذا التسابق الضاري من أجل

السيطرة ومن أجل القوة المدمرة التي تفسد عصرنا الحالي [١] .

فقد احتوت الرسالة على ثلاثة أقسام: قسم تاريخي، وقسم تحليلي، وقسم نقدي جدلي، وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة ينقسم بدوره إلى ثلاثة فصول. ويهتم الفصل الأول من القسم التاريخي بإلقاء نظرة تاريخية عابرة على طفولة النبي الكريم وشبابه حتى بداية بعثته.

واستخلص الدكتور دراز من هذه النظرة طابع الإخلاص المطلق الذي اتصف به الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي كان يوحي بالثقة الكاملة لكل من عرفه سواء من أصدقائه أو من أعدائه.

واعتبر شهادة ((أبي سفيان)) في هذه النقطة وثيقة تاريخية ثمينة في مظهرها العربي والروماني على السواء ،حيث إنها في صورة حوار قام فيه ((أبو سفيان)) بالرد على أسئلة محبوكة وجهها إليه الإمبراطور ((هرقل)) وكان أبو سفيان في ذلك الوقت، من أشد أعداء محمد ضراوة وحنقا. وقد حرص على نقل هذا الحوار بأكمله لأنه يوضح كثيرا من المسائل التي تناولها البحث.

وفي الفصل الثاني عرض المؤلف للظروف التي نزل فيها القرآن الكريم والظروف التي جمع فيها، ثم انتقل من خلالها حتى وصل إلينا. ويتضح من هذا البحث أن النص القرآني الذي بين أيدينا اليوم لا يرجع إلى الخليفة الثالث، عثمان بن عفان، كما يقال، ولا إلى الخليفة الأول أبي بكر، وإنما هو مطابق مطابقة حرفية للنص المكتوب بإملاء الرسول عليه الصلاة والسلام والذي حفظ بعناية وتقديس في صدور الصحابة وقرائهم.

وبعد أن حفظ النص القرآني على هذا النحو، بعيدا عن أي خلط أو شكوك انتقل كما هو معلوم من جيل إلى جيل بأمانة وتقديس حتى وصل إلينا. والدليل الذي يقطع بصحته يكمن في أنه رغم الخلاف الذي نزغ بين المسلمين مبكرا بسبب تباعد آرائهم

---

(١) راجع مدخل إلي القرآن الكريم ص ١٦ – ١٧

السياسية، فقد ظل القرآن واحدا في العالم الإسلامي كله حتى بالنسبة للفرق الإسلامية الحانقة على الخلفاء الثلاثة الأول.

أما الفصل الثالث فيفند الخطأ الشائع الذي يزعم أن الإسلام يبيح نشر الدعوة بالقوة. واستطاع المؤلف أن يثبت ما يخالف ذلك، ويؤكد أن حرية العقيدة والدين هي من المبادئ التي أرساها وعززها القرآن الكريم بصراحة ووضوح. فإنه لا يكره الضمائر، وإنما يتصدى لكل من يحاول قهرها وإجبارها. فالحرب الشرعية المقدسة في نظر القرآن هي الحرب الدفاعية.

وإذا كانت هناك مخالفات لهذه القاعدة قد وقعت عبر التاريخ، فإنها، في الواقع. لا تستند إلى حرفية النص القرآني ولا إلى روحه فضلا عن أنها لم تكن السبب الرئيسي لانتشار الإسلام.

وتقودنا خاتمة القسم الأول التاريخي، إلى القسم الثاني التحليلي حيث يحاول المؤلف استخلاص الأفكار الرئيسة في الدعوة القرآنية من جانبها الديني، وجانبها الخلقي.

فالإسلام في معناه الحرفي، هو الإيمان بالله والخضوع للإرادة الإلهية وهو بهذا المعنى لا يتعارض مع دين موسي ولا مع دين عيسي ، وإنه يدعو للإيمان بجميع الكتب المنزلة وجميع الأنبياء إيمانا يضمهم جميعا بتقديس واحد دون التمييز بين أي منهم. والإسلام من هذه الناحية ليس دعوة جديدة، ولا حتى إصلاحا ، وإنما هو مجرد عودة إلى الوحدة الأصلية. إنه الدين الأوحد الذي لم يأل الرسل جهدا في الدعوة إليه منذ نوح وإبراهيم حتى موسى وعيسى عليهم السلام. ، هذا فيما يتعلق بالحقيقة الدينية. ولا يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالقانون الأخلاقي: فقد أقام جميع الرسل ميزان العدل، وكلهم أمروا بأن يفعلوا الخير ويحثوا على الخير. ولقد سن الصلاة والزكاة كل من إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وموسى وعيسى. كما كتب الصوم على الأمم

السابقة، وشرع إبراهيم فريضة الحج. ولقد أدان كل من هود وصالح حب قومه للأموال والمتع الدنيوية والعدوان والفساد. وقاوم لوط انحلال قومه وانغماسهم في الرذيلة، وقاوم شعيب الغش في التجارة. فجميع الناس مرجعهم إلى الله، وستعرض عليه أعمالهم في الدنيا سواء في ذلك الرسل أم الشعوب التي أرسلوا إليها ،وفضلا عن إحياء السلوك القديم والتضامن الفكري الذي يجمع بين رسل الله جميعا، فإن القرآن يذكر دائما في كلا المجالين العقدي والعملي ما في نفس الإنسان من عنصر مشترك: هو الحكم الفعلي والسليم الذي يميز به الإنسان الخير والشر

وهكذا نرى أن الدعوة القرآنية دعوة عالمية في هدفها، وهي عالمية أيضا في أسلوب ووسائل الإقناع التي يتبعها القرآن لتحقيق هذا الهدف السامي. ولكن القرآن لم يأت فقط لتذكير الناس بالعقل السليم، ولإعادة الخلق القويم بينهم. فليست رسالته هي تعزيز الرسل السابقين والربط بين دعواتهم بسياج الوحدة والتصديق عليها، بعد أن وفق بين عدد من أحكامهم التي كانت في الظاهر متعارضة. وإنما اضطلع القرآن، كتاب الإسلام، بمهام أخرى جديدة.

أولا: أن يخفف عن الإنسانية بعض الشرائع القاسية التي كانت قد سنت بصفة مؤقتة كتكفير عن معاصي ارتكبت، وإعادة الأمور إلى نظامها الطبيعي الرحيم.

ثانيا: وبصفة خاصة إضافة تكملة ضرورية لكل ما سبق. ولقد اتضح من حصر بعض الأحكام في التوراة وفي القرآن أن كل مرحلة من مراحل الوحي الإلهي تعتبر– مع احتفاظها بما اكتسبته من المرحلة السابقة– تقدما ملموسا عليها. وساق المؤلف كثيرا من الأمثلة لهذه الخاصية التدريجية التقدمية، سواء في الإنجيل بالنسبة للتوراة، أو في القرآن بالنسبة للكتابين السابقين عليه. ولا يعدو أن يكون هذا الحصر وهذه المقارنة إلا تعزيزا لكلمة الرسول الخالدة ((بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)).

أما القسم الثالث والأخير من هذا الكتاب. فقد كرسه المؤلف لدراسة طريقة

القرآن في إثبات ربانية مصدره. ولقد تركز هذا التدليل، بصفة خاصة، على النقاط التالية:

١ – طابع الوحي المفاجئ. وغير المنتظر. فمحمد لم يدر بخلده أنه سيبعث رسولا، وبعد أن تلقى الوحي لم يكن يضمن استمراره.

٢ – عدم معرفة محمد وجهل شعبه ليس فقط فيما يتعلق بالقصص الديني وإنما في كل ما يتعلق بالإيمان والتشريع والكتب المنزلة والسلوك الأمثل عند الله.

٣ – حالة الأمية، إذ أن محمدا لم يكن يقرأ أو يكتب.

٤ – وكانت اللغة الأجنبية للأديان السابقة أمام النبي حائلا طبيعيا يمنعه من الوصول إلى هذه المصادر، وأن يفهمها من نصوصها الشفهية.

٥ – ومع ذلك، شهد العلماء المتخصصون في الكتب المنزلة السابقة بصدق ما جاء به محمد عن كتبهم.

٦ – أما بالنسبة لقومه الذين عاش بينهم عددا من السنين يعادل عمرا، فقد أدركوا أنه لم يكن ليأتي بهذا الكتاب من عنده

٧ – قوة أخلاقه، وصدق إيمانه، وشعوره المرهف بمسؤوليته يوم القيامة، كلها حقائق لا تتفق مع إمكان أن يخترع شيئا وينسبه إلى الله.

٨ – وإذا نظرنا للقرآن في حد ذاته، وافترضنا –جدلا– أنه كان من نتاج بشري وأخذنا في اعتبارنا ضخامة محتواه وطول مدة نزوله، فقد كان من المحتم أن يتضمن بعض التصريحات المتناقضة، أو المتعارضة مع بعض الوقائع السابقة أو اللاحقة له.

٩ – ولكن الحقائق التي يقدمها القرآن–حسب تعبيره– لا يمكن الطعن فيها من بين يديها ولا من خلفها، أي لا في الماضي ولا في المستقبل(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد).

١٠ – وأخيرا فليس من المستحيل فحسب أن يصدر القرآن عن قلب رجل، أو عن قلب رجال، وإنما إذا اجتمع عالم المنظور وعالم غير المنظور، وتضافرت جهودهم لإتيان شيء مثله، فلن يتمكنوا من ذلك أبدا. هذا التحدي الإلهي لم يهدمه أحد في الماضي، ولن يهدمه أحد في المستقبل. فلسنا نحن الذين نعلنه وإنما هو القرآن الذي يتولى الدفاع عن نفسه بنفسه ، حيث يقول تعالي :﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾

ومما يزيد في قوة الحجج والأسانيد التي يوردها الدكتور دراز، أنه لم يكتف في مناقشته لنقاط البحث المختلفة بالرجوع إلى نصوص القرآن، أو إلى ما أثر عن السلف الصالح وعلماء الفقه، بل وأنه كان– وفقا لطريقته في التعمق– يجهد عقله لكي يتصور ما قد يمكن أن يوجه من اعتراضات على ما يقدمه من حقائق، ويقلب كل مسألة من المسائل على وجوهها المختلفة، المحتملة منها وغير المحتملة، ويورد ما جاء بشأنها في كتب المستشرقين والفلاسفة والمفكرين الغربيين. ثم يرد عليهم بحجج عقلية من نوع حججهم، فيكون في ذلك أبلغ الرد عليهم، وخير وسيلة لهدم دعاواهم [١] .

وإذا كان القسم الثالث خصصه للبحث عن مصدر القرآن في الفترة المكية، وفي الفترة المدنية ،

(ومصدر القرآن هو الله سبحانه دون نزاع) ولكن كهنة الغرب يختلقون مصادر زائفة، رأى الأستاذ أن يجهز عليها بالدليل فبلغ المراد.

إذا كان الأمر كذلك فقد جاءت الخاتمة لتؤكد حقيقة الوحى، وتبطل ما أحاط به من المزاعم والأراجيف، ولتنتهي إلى أن منهج القرآن الكريم ينهض دليلا كافيا على مصدره الرباني .

---

(١) راجع المصدر السابق ص ٧ – ١٢

وينصح الدكتور محمد رجب البيومي الذين يكتبون أمثال هذه الأمور الدقيقة أن يقتدوا بأسلوب الدكتور دراز العلمي ، فقد وجدنا من أطال القول في هذا المجال معتمدا على العبارة الرنانة، والأسلوب الخطابي ، ومندفعا للاستهزاء من الخصوم بالقول الجارح، والتطاول الحاد، وليس هذا سبيل المحققين من الدارسين، فالاستهزاء لا يكون بأسباب التطاول، ولكنه ببلاغة العرض، وقوة الدليل، ونظافة اللفظ، وقد رأينا كثيرا من المخطئين يرجعون عن آرائهم حين يلمسون قوة المنطق، وسلامة التأني ، وعفة اللفظ، وما رأينا واحدا من هؤلاء يرجع عن رأيه الخاطئ لأنه قوبل بالسباب، بل ربما زاده ذلك إيغالا في الضلال [١] .

(١) راجع النهضة الإسلامية ج٢ ص٢٥٠

المبحث الثاني

جهوده في الحوار مع الآخر من خلال مشاركته في مؤتمر الأديان العالمي بباريس ١٩٣٩م

بينما كان الدكتور محمد عبدالله دراز يدرس في فرنسا– حيث سافر كما قلنا في بعثة أزهرية عام١٩٣٦م–تهيأت له مناسبة سارة سطع فيها نجمه العلمي، فجذب إليه أنظار الدارسين في أوربا، حيث يعقد في عواصم أوربا في دورات متعاقبة مؤتمر يدعى (مؤتمر الأديان العالمي)، وقد دعي الأزهر في دورة مؤتمر الأديان العالمي التي انعقدت بباريس في جامعة السوربون، فانتدب شيخ الأزهر في ذلك الوقت فضيلة الشيخ محمد عبدالله دراز ليلقى كلمة الأزهر في ذلك المؤتمر، وليكون ممثل الأزهر في هذا المؤتمر العالمي، الذى ضم صفوة المفكرين من رجال الأديان في الشرق والغرب، وليست المهمة بسهلة في مناسبتها ومجتمعها ورجالها، لأن الرءوس في كل دين سيتحدثون بما يجلو النقاب عن عقائدهم، ولكل فكره الصوال وحجاجه الدقيق.

لكن الشيخ دراز كان عند حسن ظن الجميع، فألقى كلمته بالفرنسية [١] ، وأنعم الله عليه بالتوفيق حين واجه العالم المتحضر في رءوسه المفكرة بإيضاح معنى السلام في الإسلام، فأخذ يبين ما يهدف إليه الإسلام من إسعاد الإنسانية بإزالة ما يكدر الصفاء، ويسبب الشقاء [٢] .

وبدأ كلمته باسم الأزهر والإسلام والإنسانية مرحبا بقدوم الحاضرين، محييا فيهم ذلك الشعور النبي الذي أوحى إليهم فكرة هذا المؤتمر، وتمنى لهم النجاح والتوفيق فيما يرسمونه من الخطط لتأييد السلام العام، وأخذ يتحدث عن الواقع العالمي الراهن في وقته بما ينبئ عن قلقه وفزعه، حيث كان العالم مقبلا على الحرب العالمية الثانية التي لم تلبث أن نشبت بعد ثلاثة أشهر فحسب. فبين أن نظرة واحدة نلقيها على العالم اليوم، لتكفى

---

(١) تمت ترجمة هذه المحاضرة إلى العربية ونشرت في كتاب ((دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية للدكتور محمد عبد الله دراز دار القلم الكويت ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

(٢) راجع النهضة الإسلامية ج ٢٤٣

لإدراك ما يسود بين شعوبه من روح العداوة والشحناء، وما ينبعث في أقطاره من زفرات الشكوى والأنين.

وتساءل عن مبعث هذه النزعة الشريرة التي تنذر بأسوأ العواقب؟ وعن سر الشحناء السائدة بين الدول، ورد باعثها إلى تحكم المادية وازدياد نفوذها في تسيير مجرى الأمور العالمية،

وبين أنه لا علاج إلا بإنعاش القوى الروحية في الأمم عن طريق الدين حيث كان يؤمن إيمانا جازما بوظيفة الدين في المجتمع، على اعتبار أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها في كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه،والتئام أسباب الأمن والطمأنينة فيه [١] .

لكنه استدرك مبينا أننا إذا رجعنا إلى الأديان نلتمس فيها المعونة، هالنا ما نراه من اختلافها اختلافا ظالما، كان من أسباب الخصومات والحروب، بدل أن يساعد على حسن التفاهم والتقريب، وتساءل قائلا: هل نستطيع أن نجد من وراء هذا الاختلاف وحدة مشتركة في المبادئ والمطامع تصلح أن تكون محورا لتقرير السلام بين معتنقيها، وتسهيل تعاونهم على الخير المشترك للجميع؟

وبين أن هذه هي النقطة الأساسية التي تدور عليها أعمال المؤتمر، وأن هذا هو الإشكال الذي يحاول المؤتمر أن يجد له حلا

وأجاب عن هذا التساؤل بقوله: أما أنا فأميل إلى أن يكون هذا الحل على أساس الفصل في الأديان بين ناحيتها الاجتماعية، وبين نواحيها الأخرى، وأعتقد أن افتراق الأديان في عقائدها وشعائرها وكثير من تعاليمها لا يمنع التقاءها من الوجهة الخلقية عند قاعدة واحدة هى أساس التعاون المطلوب، وذلك أنها كلها تأمر بالعدل والإحسان، وتنهى عن الظلم والعدوان، وكلها تسوى في هذه المعاملة الدنيوية بين أتباعها وبين

(١) راجع كتابه ((الدين)) بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص٩٨-٩٩ دار القلم دمشق

أعدائها [١] .

وأخذ الأستاذ دراز يعرض نصوصا من كتب الأديان الأخرى تؤيد منحاه الصريح [٢]

وفيما يتعلق بالإسلام بين أن من السهل الرجوع إلى كتابه وحياة نبيه صلى الله عليه وسلم فكتابه لا يزال– وسيظل– غضا طريا محفوظا في نصه وحرفيته كما أنزل على نبيه، وحياة نبيه قد سجلها التاريخ بتفاصيلها بأتم عناية وضبط، وإن نظرة واحدة في هذين المصدرين لكافية في معرفة موقف الإسلام نظريا وعمليا من قضية السلام العالمي، وكيف أنه خاض كل ميادين الحياة، وتدخل في جميع جزئياتها، ولكنه على الرغم من ذلك بقى محتفظا بسموه الروحي حتى في أشد الشئون ارتباطا بالمادة، وهكذا كان وجه بداعته، أنه استطاع أن يوفق بين المطالب الروحية والمطالب الزمنية للإنسان بنسبة عالية مستقيمة.

وأشار الشيخ دراز إلى بعض البراهين التي تدل على سماحة الإسلام، وسعيه للوحدة والائتلاف بأوسع ما في حدود الإمكان، أما من الوجهة النظرية فقد سعى الإسلام لتأسيس هذه الوحدة على دعامتين: الأولى: من طريق التوفيق بين وسائل هذه الغاية، وذلك ببيان أن الشرائع السماوية ترجع كلها إلى أصل واحد، ودعوة معاصريه من أهل الأديان السابقة إلى تكوين أسرة روحية واحدة تؤمن بجميع الكتب وجميع الأنبياء بدون تفريق بين أحد منهم [٣] .

وأما من الوجهة العملية فقد عالج موقف الإسلام في أربع نقاط:

النقطة الأولى: أن الإسلام قد حظر البدء بمناوشة مخالفيه أو بمضايقتهم في الحياة المادية ما داموا مسالمين له، وأمر في هذه الحال بحسن جوارهم ليس بطريقة سلبية

---

(١) راجع دراسات إسلامية ص١٢٩–١٣١

(٢) راجع المصدر السابق ص١٣١–١٣٣

(٣) راجع تفاصيل ذلك في المصدر السابق ص١٣٤– ١٣٦

فحسب، بل بالبر بهم، والعدل بينهم: ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

.ولقد كان من أول الأعمال التي قام بها النبي بعد الهجرة الى المدينة محالفته لليهود ومؤاخاته بين المهاجرين والأنصار، وبذلك أنشأ في المدينة أمة واحدة من عناصر ثلاثة مختلفة في الجنس والدين، يستوي قحطانيهم وعدنانيهم كما يستوي مسلمهم ومشركهم ويهوديهم، في حقوق الولاء وحسن الجوار والتناصر على دفع المغيرين.

كما كان من أواخر أعماله مصالحته لنصارى نجران، وإقرارهم على دينهم في قلب الوطن العربي الإسلامي.

ثانيا: في الحال التي تستحكم فيها العداوة وتكون الظروف مهددة باحتمال وقوع حرب، وضع الإسلام وسائل كافية لاتقائها في الوقت نفسه الذي يكون فيه المسلمون أشد قوة؛ وأوصى بقبول كل شروط يعرضها المخالفون ما دامت تؤدي لحقن الدماء وصيانة المحرمات وحسن العلاقات بين الجانبين.، ومن الأمثلة الواضحة في هذا الموقف السلمي النبيل تلك المعاهدة التي وقعها الرسول بنفسه مع قريش في عام الحديبية.

هذا والمعاهدات الإسلامية ليست حبرا على ورق، بل هي عقود دينية يوجب الإسلام تنفيذها بدقة وأمانة حتى مع الوثنيين: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، ولقد كان فريق من أهل الكتاب يوفون بعهودهم إلى أهل ملتهم ولكنهم لا يرون الوفاء واجبا بعهودهم مع المسلمين ﴿ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ فجاء القرآن ناعيا عليهم هذا التفريق، مبينا أن الوفاء بالعهد واجب إنساني عام: ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

ثالثا: في الحال التي تصبح فيها الحرب أمرا وقعا، وضع الإسلام قواعد عملية كثيرة تخفف من أهوالها وتحدد بإنصاف ما يقتضيه الموقف الدفاعي البحت، فنهي عن قتل

المرأة في بيتها والراهب في متعبده، والفلاح في مزرعته؛ وبالجملة حصر القتال في ميدان الحرب لا يتعداه: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ وفي هذا الميدان نفسه نهي عن التشفي بالتمثيل والتعذيب: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

رابعا: في الحال التي تنجلي فيها المعركة عن ظفر المسلمين، ضرب الإسلام أمثلة عالية في الكرم والصفح عن الماضي وعدم الاستمرار في تتبع الفارين الذين يطلبون الأمان ويلقون كلمة السلام: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

ومن أروع الأمثلة في ذلك موقف الرسول يوم فتح مكة مع قريش الذين ناصبوه الحرب والعداء أكثر من عشرين سنة، إذ قال لهم بعد أن ظفر بهم: ((اذهبوا فأنتم الطلقاء)) وأطلق سراح أكثر من ستة آلاف أسير [١] .

ثم ينتقل الدكتور دراز إلي جانب آخر يتعلق بحياة رسول الإسلام فيقول: أما أن محمدا صلى الله عليه وسلم نفسه كان مطبوعا بفطرته على التسامح وحب السلام، وانه كان داعية توفيق لا تفريق، فذلك ما تدل عليه كل حياته حتى قبل النبوة. وضرب لذلك مثالين اثنين فقط: أحدهما–حادث الحجر الأسود حين اختلفت القبائل فيمن يكون له شرف وضعه في مكانه من الكعبة وحكموا محمدا ((الأمين)) بينهم فلم يتحيز في حكمه لجانب قبيلته هو، بل حكم أن يوضع الحجر في رداء ، وان تأخذ كل قبيلة بطرف لتساهم كلها في هذا الشرف ، وهكذا كان به حقن دمائهم والتأليف بين قلوبهم.

الثاني– اشتراكه حين كان له من العمر خمس وعشرون سنة في حلف الفضول، وهو شبه مؤتمر صغير تحالفت فيه قريش على نصر المظلوم وحفظ الأمن العام.

ويؤكد علي أن إثارة هذه الذكرى في يومنا هذا وفي مكاننا هذا لها موقع خاص في نفسه ؛ وأنه لا يستطيع أن يدفع عن خياله هذه المقارنة بين الماضي والحاضر. ويري

---

(١) راجع المصدر السابق ص ١٣٦ – ١٣٧

أننا الآن إنما نطبع على غرار ذلك الماضي البعيد، وإنما نترسم الخطوات الأولى للنبي الكريم.

ثم يشير الدكتور دراز إلي أن فكرة الاجتماع والائتلاف نفسها يرى عليها في الإسلام مسحة من طابع القدسية، فخير يوم عند المسلمين اسمه يوم ((الجمعة)) أي يوم الاجتماع، وخير مكان عندهم اسمه ((الجامع)).وأن المحبة المتبادلة بين المؤمنين هي إحدى النعم العظمى التي يمتن الله عليهم بتحقيقها بالفعل: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ . وأن المحبة المتبادلة بين الناس أجمعين هي إحدى الأماني الغالية التي فتح القرآن بابها أمام المسلمين: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، وأن اسم ((السلام)) نفسه واسم((الإسلام)) يرجعان في اللغة العربية إلى أصل واحد؛ وإن أحب التحيات إلى المسلمين هي الدعاء بالسلام [١] .

وانتهي في بيانه مستخلصا النتائج الآتية:

أولا: أن الأديان كلها، بدلا من أن تكون سبب نزاع وخصام في شؤون هذه الحياة، هي على الضد من ذلك تنادي بالائتلاف والوئام.

ثانيا: أن السبب الحقيقي لهذه الخصومات هو بالعكس تعمد الانحراف عن الدين، وان كل طائفة تثير نار الحرب باسم الدين كاذبة في دعواها الانتساب إلى دينها.

ثالثا: أن العلاج الوحيد للآلام والإنسانية الحاضرة هو أن يعنى رجال كل دين عناية خاصة بالجانب الخلقي العام منه، فينموا في أتباعهم عاطفة الأخوة الإنسانية باسم الدين نفسه.

ويؤكد علي أن هذا التقارب والتعاون في الحياة العملية إن تم على وجهه سيكون خطوة أولية في سبيل التفاهم في الحقائق الدينية نفسها، ويرجى من وراء ذلك تقليل

---

(١) راجع المصدر السابق ص ١٣٧ – ١٣٩

فوارقها النظرية وتسهيل الوصول على الحقيقة بالبحث الحر، في جو ودي نزيه.

وفي الختام عرض على هيئة المؤتمر اقتراحين عمليين راجيا أن يؤخذ الرأي عليهما:

الأول : أن تنشر خلاصة قرارات المؤتمر على رجال الدين في كل أمة، وأن يرجى منهم المساهمة في علاج الأزمات الراهنة بتحريض أتباعهم على اقتفاء هذه المثل العليا.

الثاني: أن يطلب باسم المؤتمر على مختلف الحكومات أن تنصف الشعوب المظلومة التي تحت نفوذها.

ويؤكد علي القول بأننا إن فعلنا ذلك نكون قد قمنا بنصيبنا من الواجب الديني والإنساني لخير الجميع [١] .

وقد وافق المؤتمرون بالإجماع علي هذين الاقتراحين ، وكان إعجابهم بالكلمة عظيما حتي قال عنها السير فرنسيس رئيس المؤتمر : إن كلمة الأزهر هذه هي الكلمة الرئيسة، وأثني عليها المعقبون بما تستحق من تنويه ، وكان من حظها أن تخصها الصحف الفرنسية بخلاصة وافية ، وأن تجمع علي أنها الكلمة الأولي في المؤتمر [٢] .

---

(١) راجع المصدر السابق ص ١٣٩ – ١٤٠

(٢) راجع المصدر السابق ص ١٢٩ والنهضة الإسلامية ج ٢ ص ٢٤٤

المبحث الثالث

جهوده في الحوار مع الآخر من خلال بحثه في الندوة العالمية للأديان: لاهور بباكستان (١٩٥٨)

إذا كانت محاضرة الأستاذ دراز في المؤتمر العالمي للأديان الذى انعقد بباريس مشرق نجمه في الدوائر العلمية العالمية، كما سبق أن أشرت، فقد شاء الله عز وجل أن يكون آخر بحث له في مؤتمر مماثل، حيث انعقدت الندوة العالمية للأديان بلاهور بباكستان في جمادى الآخرة ١٣٧٧هـ يناير سنة١٩٥٨م وكان قد أعده لإلقائه في هذه الندوة، وشاء الله عز وجل أن يلقيه سواه، إذ لبى الدكتور دراز نداء ربه أثناء انعقاد الندوة، وقبل أن يسعد الناس بإلقاء كلمته.

تحديد العلاقة بين الإسلام وبين غيره من الأديان الأخرى: تحت عنوان ((موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها)) صور الدكتور دراز موقف الإسلام من الأديان الأخرى تصويرا جامعا مانعا، على دقة بالغة لا تسمح بالإيجاز أو الاستطراد [١] .

فقد بدأ حديثه بأننا إذا أخذنا كلمة ((الإسلام)) بمدلولها القرآني نجدها لا تدع مجالا لهذا السؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية.

فالإسلام في لغة القرآن ليس اسما لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء، واستشهد على ذلك بآيات من القرآن الكريم تنطق باسم الإسلام، وتجعله شعارا عاما على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية.

فها هو نوح عليه السلام يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس:٧٢)، ويعقوب يوصى بنيه : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٢)،

---

(١) تم نشر هذا البحث كملحق في آخر كتاب الدين للدكتور دراز من ص ١٧٣ إلي ص ١٨٥ دار القلم بالكويت

وأبناء يعقوب يجيبون أباهم ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٣)، وموسى يقول لقومه : ﴿ يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ (يونس:٨٤)، والحواريون يقولون لعيسى ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٥٢)

بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن: ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (القصص:٥٣).

وينتهي إلى أنه بالجملة نرى اسم الإسلام شعارا عاما يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية [١] ،

ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها في قضية واحدة يوجهها إلى المسلمين أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم دينا جديدا، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم:

يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى:١٣).

ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم في سلك واحد ويجعل منهم جميعا أمة واحدة لها إله واحد، كما لها شريعة واحدة : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢).

ثم يتساءل الدكتور دراز:

ما هذا الدين المشترك الذي اسمه الإسلام، والذي هو دين كل الأنبياء والمرسلين؟

ويجيب بأن الذي يقرأ القرآن يعرف كنه هذا الدين؛ إنه هو التوجه إلى الله رب

---

(١) لقد قمت بتحقيق هذه القضية في كتابي (تأثر اليهودية بالأديان الوثنية) وفصلت القول فيها من ص ٣٤ إلي ص ٤٦ طبع ونشر دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية طنطا مصر الطبعة الأولي

العالمين في خضوع خالص لا يشوبه شرك، وفى إيمان واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أي لسان وفى أي زمان أو مكان، دون تمرد على حكمه، ودون تميز شخصي أو طائفي أو عنصري بين كتاب وكتاب من كتبه، أو بين رسول ورسول من رسله.

هكذا يقول القرآن ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة:٥)، ويقول تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى ... ﴾ (البقرة : ١٣٦) .

وينتهي بذلك إلى أن الإسلام بمعناه القرآني الذي وصفناه لا يصلح أن يكون محلا للسؤال عن علاقة بينه وبين الأديان السماوية، إذ لا يسأل عن العلاقة بين الشئ ونفسه، فها هنا وحدة لا انقسام فيها ولا اثنينية [١] .

ثم ينتقل الدكتور دراز رحمه الله إلى بيان المدلول العرفي لكلمة الإسلام لدى الناس فيبين أن كلمة الإسلام قد أصبح لها في عرف الناس مدلول معين هو ((مجموعة الشرائع والتعاليم التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم أو التي استنبطت مما جاء به.))

وقام بتحديد العلاقة بين الإسلام بهذا المعنى وبين اليهودية والنصرانية من خلال مرحلتين:

المرحلة الأولى: في علاقة الإسلام بالشرائع السماوية السابقة وهى في صورتها الأولى، لم تبعد عن منبعها، ولم يتغير فيها شئ بفعل الزمان، ولا بيد الإنسان.

المرحلة الثانية: في علاقته بها بعد أن طال عليها الأمد، وطرأ عليها شئ من التطور،

وعن المرحلة الأولى يؤكد الدكتور دراز أن القرآن جاء مصدقا لما قبله، فهو مصدق للتوراة والإنجيل معا، وليس معنى التصديق هو التذكير فقط دون تبديل، إذ جاء

---

(١) راجع موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها ص١٧٥ -١٧٦

الإنجيل بتعديل أحكام التوراة، فأعلن عيسى عليه السلام أنه أتى ليحل بني إسرائيل بعض ما حرم عليهم، وكذلك جاء القرآن الكريم بتعديل بعض أحكام الإنجيل، إذ أعلن كتاب الله أنه نزل ليحل للناس الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم (الآية ١٥٧ من سورة الأعراف)

لكن الدكتور دراز ينبه إلى أنه يجب أن يفهم أن هذا وذلك لم يكن من المتأخر نقضا للمتقدم، ولا إنكارا لحكمة أحكامه في إبانها، وإنما كان وقوفا بها عند وقتها المناسب، وأجلها المقدر

ويضرب على ذلك مثلا بأن ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته فقرر قصر غذائه علي اللبن ، وجاء الثاني إلي الطفل في مرحلته الثانية فقرر له طعاما لينا وطعاما نشويا خفيفا، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها فأذن له بغذاء قوى كامل

ولا ريب أن هاهنا اعترافا ضمنيا من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقا كل التوفيق في علاج الحال التي عرضت عليه، نعم إن هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة، ونحوها لا تختلف باختلاف الأسنان، فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

وهكذا الشرائع السماوية فيما يقول الدكتور دراز– كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضا من ألفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق على ضربين:

تصديق القديم مع الإذن ببقائه واستمراره ، وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية

ذلك أن الشرائع السماوية تحتوى على نوعين من التشريعات:

(تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبدل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع)

ونحوها،

فإذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناسوا هذا الضرب من التشريع جاءت الشريعة اللاحقة بمثله أي أعادت مضمونه تذكيرا وتأكيدا له.

(وتشريعات موقوتة) بآجال طويلة أو قصيرة فهذه تنتهي بانتهاء وقتها ، وتجئ الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة..

ويرى الدكتور دراز أن هذا– والله أعلم– هو تأويل قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة:١٠٦)

وبذلك فإنه لولا اشتمال الشريعة السماوية على هذين النوعين ما اجتمع فيها العنصران الضروريان لسعادة المجتمع البشرى: عنصر الاستمرار الذي يربط حاضر البشرية بماضيها، وعنصر الإنشاء والتجديد، الذي يعد الحاضر للتطور والرقى اتجاها إلى مستقبل أفضل وأكمل [١] .

وبين الدكتور دراز أنه لو نظرنا نظرة فاحصة إلي سير التشريع السماوي من خلال الشرائع الثلاث نجد فيها هذين العنصرين واضحين كل الوضوح ، إذ نجد كل شريعة جديدة تحافظ علي الأسس الثابتة التي أرستها الشريعة السابقة ، ثم تزيد عليها ما يشاء الله زيادته ، وضرب علي ذلك مثالا من أمثلة الجمع في سير التشريعات السماوية بين عنصر المحافظة على القديم الصالح، وعنصر الأخذ بالجديد الأصلح [٢] .

وهكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة ولبنات متراكمة في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقى فيه من فراغ، وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء.واستشهد على ذلك بقوله تعالى حين وصف خاتم أنبيائه بأنه : ﴿جَاءَ

(١) راجع المصدر السابق ص ١٧٨ – ١٧٩

(٢) راجع تفصيل ذلك في المصدر السابق ص ١٧٩ – ١٨٠

بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣٧ الصافات)، وبقوله تعالى حين وصف اليوم الأخير من أيامه بأنه كان إتماما للنعمة وإكمالا للدين : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ... ﴾ (المائدة : ٣).

واستشهد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير بقوله (مثلى ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتا فأحسنه وجمله، إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين) (البخاري : كتاب المناقب، باب خاتم النبيين)

وينتهي الدكتور دراز في هذه المرحلة إلى القول بأنها إذن سياسة حكيمة رسمتها يد العناية الإلهية، لتربية البشرية، تربية تدريجية، لا طفرة فيها ولا ثغرة، ولا توقف فيها ولا رجعة، ولا تناقص ولا تعارض، بل تضافر وتعانق، وثبات واستقرار، ثم نمو واكتمال وازدهار [١] .

ثم انتقل الدكتور دراز إلى بحث العلاقة بين الشريعة المحمدية وبين الشرائع السماوية بعد أن طال عليها الأمد، فنالها شئ من التطور والتحرر، فيعلن أنه إذا كان القرآن في المرحلة الأولى مصدقا، فهو في هذه المرحلة مهيمن على تلك الكتب حارس عليها ، ومن مقتضيات الحراسة ألا يكتفي الحارس بتأييد ما خلده التاريخ فيها من حق وخير، بل عليه أن يحميها من الدخيل الذي يضاف إليها دون حق.

وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفى عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعى وجودها في تلك الكتب : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ كما كان من مهمته أن يبين ما ينبغي تبيينه مما كتموه منها ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ (المائدة:١٥).

---

(١) راجع المصدر السابق ص ١٧٥-١٨٠

وجملة القول أن علاقة الإسلام بالرسالات السماوية في صورتها الأولى هي علاقة تصديق وتأييد كلى، وأن علاقته بها في صورتها المنظورة علاقة تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة عنها.

ويؤكد الدكتور دراز أن هذا الطابع الذي تتسم به العقيدة الإسلامية، وهو طابع الإنصاف والتبصير الذي يتقاضى كل مسلم ألا يقبل جزافا، ولا ينكر جزافا، وأن يصدر دائما عن بصيرة وبينة في قبوله ورده، ليس خاصا بموقفها من الرسالات السماوية، بل هو شأنها أمام كل رأي وعقيدة، وكل شريعة وملة، حتى الديانات الوثنية نرى القرآن الكريم يحللها ويفصلها، فيستبقى ما فيها من عناصر الخير والحق والسنة الصالحة، وينحى ما فيها من عناصر الباطل والشر والبدعة [١] .

وكان من الضروري أن يختم البحث بتوضيح موقف الإسلام من الديانات الأخرى من الوجهة العملية، فعرض لآراء بعض الكتاب الغربيين الذين يرمون المسلم بالأنانية، ولا يعنيه ضل غيره أم اهتدى، ولآراء الكثير منهم الذين يزعمون أن الإسلام يريد أن يفرض نفسه على الناس بحد السيف.

فبين أن كلا الفريقين لم يصب كبد الحقيقة في تصوره لموقف الإسلام، فالإسلام فاترا ولا منطويا على نفسه كما زعم الأقلون منهم: فالدعوة إلى الحق والخير ركن أصيل من أركان الإسلام، والنشاط في هذه الدعوة فريضة مستمرة في كل زمان ومكان ولكن الإسلام في الوقت نفسه ليس كما يزعم الأكثرون عنيفا ولا متعطشا للدماء، وليس من أهدافه أن يفرض نفسه على الناس فرضا حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة.

فنبي الإسلام هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هي محاولة فاشلة، بل هي مقاومة لسنة الوجود، ومعاندة لإرادة رب الوجود ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨) ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ

(١) راجع المصدر السابق ص ١٨٠ – ١٨٢

وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣) ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٩٩).

ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة المبرمة في القرآن قاعدة حرية العقيدة ((لا إكراه في الدين)) [١] .

ثم ينبه الدكتور دراز على أن الإسلام– لا يكتفي منا بهذا الموقف السلمي السلبي، وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه، بل يتقدم بنا إلى الإمام، فيرسم لنا خطوات إيجابية نكرم بها الإنسانية في شخص غير المسلمين.

وضرب مثلا بالوصية الذهبية التي يوصينا بها القرآن في معاملة الوثنية التي هي أبعد الديانات عن الإسلام، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ التوبة :٦، فهل هناك أسمى وأنبل من ذلك،

ثم هل ترى أعدل وأرحم من تلك القاعدة الإسلامية، التي تكفل لغير المسلمين في بلاد الإسلام من الحرية والحماية ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من حقوق العامة ((لهم ما لنا وعليهم ما علينا)) ، ثم هل ترى أوسع أفقا، وأرحب صدرا، وأسبق إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولي والتعايش السلمي بين الأمم، من تلك الدعوة القرآنية التي تندب المسلمين أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف رحمة وبر، وعدل وقسط ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨)

وأنهى الدكتور دراز بحثه كما قال بكلمة واحدة: إن الإسلام لا يكف لحظة واحدة عن مد يده لمصافحة أتباع كل ملة ونحلة في سبيل التعاون على إقامة العدل، ونشر الأمن، وصيانة الدماء أن تسفك، وحماية الحرمات أن تنتهك، ولو على شروط يبدو فيها بعض الإجحاف.

---

(١) راجع المصدر السابق ص ١٨٢–١٨٣

ناهيك بالمثل الرائع الذي ضربه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى حين قال في الحديبية:(والله لا تدعوني قريش إلى خطة توصل فيها الأرحام، وتعظم فيها الحرمات إلا أعطيتهم إياها).

هذا هو مبدأ التعاون العالمي على السلام، يقرره نبي الإسلام، ورسول السلام [١].

وهكذا تجلت في هذا البحث الضليع أستاذية الدكتور دراز المكينة، كما تجلت سعة أفقه، وغزارة عمله وقوة برهنته، ونصاعة حجته، حين اعتمد على المنطق التحليلي المؤيد بالأدلة العقلية والنقلية في جميع ما قرر من القضايا، وما فند من الشبهات، وما أعلنه من الحقائق،

مما جعل الدكتور محمد رجب البيومي يدعو رجال الدعوة الإسلامية إلي تتبع كل ما كتبه الأستاذ الكبير عن علاقة الإسلام بالأديان السابقة ، لا ليلموا بالأفكار وحدها ، بل ليدرسوا منهجه المنطقي في تقرير القضية وعرضها ، والاستدلال عليها ، وعليهم أن يعرفوا أن الإسهاب في غير موضعه خطل بائر ، لأنه يقذف بالقضايا الواضحة إلي متاهات مضلة ، وقد صرنا في عصر متفتح المنافذ لكل ضوء ، وضوء الإسلام بحقائقه الثابتة أقوي شعاعا ، وأهدي سبيلا ، وعلينا أن نعرضه واضحا ساطعا ، دون أن يغشاه سحاب مركوم من النقول الضالة ، والآراء الدخيلة [٢] ، وشاء الله سبحانه أن يلبى الأستاذ الكبير نداء ربه قبل أن يلقى هذه الكلمة، فكانت خاتمته خير ختام، حيث صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها، بعد هذه الرحلة الشاقة من الجهاد في البحث والحوار والمناقشة والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن، والدفاع عن الإسلام ، والذب عن الوحي والقرآن ، فكان هذا آخر ما مات عليه، ونسأل الله سبحانه أن يبعثه علي ما مات عليه.

---

(١) راجع المصدر السابق ص ١٨٣ – ١٨٥

(٢) راجع النهضة الإسلامية ج ٢ ص ٢٤٧

المبحث الرابع

جهوده في الحوار مع الآخر من خلال دفع الشبهات ودحض المفتريات

عنى الدكتور دراز عناية تامة، واهتم اهتماماً بالغاً، بالدفاع عن الإسلام ورسول الإسلام، فعرض لكثير من الشبهات والمفتريات التي رددها الكتاب الغربيون في دراساتهم كأنها مسلمات، وتوارثوها عن أسلافهم، الذين نفثوها ونفخوا فيها، فقام بدرء هذه المفتريات، ودحض تلك الشبهات،

وسوف أقتصر في هذا المبحث على بيان دوره في دفع شبهتين أو نموذجين يعبران تمام التعبير عما يجول في صدروهم تجاه الإسلام ونبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه،

وقد أشار الدكتور دراز إلى هاتين الشبهتين اللذين ارتبطا في أذهانهم بنظرية خاطئة حيث يذكر أن أغلب الكتاب الأوروبيين قد تأثروا بمظهرين عامين وجدوهما متعارضين مع ربانية الرسالة في تصورهم، وتتركز أكبر حججهم في موقف الرسول المعادي الذي اتخذه في المدينة، وحينما يضيفون إلى ذلك تعدد الزوجات في أواخر أيام حياته، بكون ذلك في نظرهم بمثابة هدم نظام الأخلاق الإسلامي في مرحلته الأخيرة، وحتى الذين يقدرون الإسلام حق قدره، وهو في نشأته مضطهداً ومثخناً بالجراح، ويقدرون أيضاً مؤسسة المسالم والمتزوج بامرأة واحدة، ينتابهم الهول عندما يرونه فيما بعد كما تصوروه ملطخ اليدين بالدماء ومحاط بموكب من زوجاته،

ونستطيع أن نكشف بسهولة فيما يقول الدكتور دراز تحت هذا الأسلوب التصويري لكتاب مسيحيين، أساساً للاستدلال، لا يمكنهم أخذه مأخذ الحد دون أن يهدموا جزءا من إيمانهم بتعاليم التوراة قبل مجيء المسيح، وهي تلك التي يمكن أن تثير بشأنهم حجتهم المزدوجة، وحينئذ لا مناص من القول بأنهم كانوا مدفوعين بشعورهم أكثر من اعتمادهم على التدليل المنطقي الصارم [١] .

---

(١) راجع مدخل إلى القرآن الكريم، ١٥١ــ ١٥٢

وسوف نتحدث في هذا المبحث عن شبهتهم الأولى : وهي ما تعرف بشبهة انتشار الإسلام بحد السيف ، وعن شبهتهم الثانية التي تتعلق بتعدد أزواجه_ صلى الله عليه وسلم

أولاً: شبهة انتشار الإسلام بالقوة أو بحد السيف والرد عليها :

تحدث العلاقة الدكتور دراز عن هذه الشبهة، وعرض لها في أكثر من موضع من رسالته، وفي عدد من بحوثه التي ألقاها في المؤتمرات والندوات الدولية، وغيرهما مما هو منثور في بعض كتيه المنشورة، وهذا يعني أنها شغلت حيزاً كبيرا من اهتمامه، ولاقت جانباً أكبر من عنايته،

ونبدأ أولاً بإشارته إلى أن معلومات العالم الغربي غير وافية في هذه النقطة؛ إذ يسود الاعتقاد أنه يحق للشعوب الإسلامية، بل وحتى طبقاً لكتابهم المقدس– أن يستخدموا السلاح سواءً لفرض دينهم على الناس، أو للقضاء على كل من لا يعتنقه، ويطلقون على ذلك ((الحرب المقدسة))، وهي عبارة يجعلونها تتوافق مع كلمة ((جهاد)) الواردة في القرآن الكريم،

ويرد على ذلك مبينًا أن هذا التعبير النوعي الذي يقصد به ((بذل الجهد)) ليست له أية علاقة بالناحية العسكرية لأننا نجده أيضاً في السور المكية؛ إما لبذل الجهد في الوعظ والدعوة، والجدال بالحسنى مثل قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]، وإما لبذل الجهد الشخصي ذي الطابع الأخلاقي المحض مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩]،

أما ما يعبر عن الحرب الحقيقة فهي كلمة ((قتال)) والرجوع إلى النص القرآني يوضح لنا الموضوع والهدف والحدود التي يستهدفها التشريع القرآني من وراء القتال فيقول تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] ثم يقول : ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ فَإِنِ

انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٢-١٩٣]،

وأخذ الدكتور دراز يذكر عدداً من النصوص القرآنية التي تؤكد هذا المعنى حتى في سورة التوبة التي تعتبر أشد السور على الكفار والمنافقين والمتقاعدين المترددين في القتال والتي تبدأ بإعلان عام يقطع كل علاقة بالمشركين ، نرى العناية التي أولاها القرآن في استثناء المشركين الذين لم ينقضوا عهودهم فيصرح: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤] (١) .

أما الموضوع الذي يحرض القرآن المؤمنين من أجله فإنه يتضح أكثر في الآية التالية: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ويترتب على ذلك بطبيعة الحال أن يقول الله تعالى للمؤمنين ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦]

ولكن هذا القتال يتوقف بمجرد حفظهم للعهد ((فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين)) ومعنى ذلك أننا لا نجد في مكان إذناً بالبدء بالقتال، وإنما الأمر هنا محدد بموقف الخصم العدواني، فكل مسئوليات الحرب إذن تقع على عاتق البادئ بها (٢)،

ثم يشير الدكتور دراز إلى حقيقة هامة تتعارض مع ذلك الزعم الذائع الانتشار والذي تلوكه الألسنة دائماً من أن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف، هذه الحقيقة تتمثل في ما أحدثه الإسلام بالمقارنة مع فتوحات الاسكندر المقدوني وغيره من إصلاح ديني واجتماعي وأخلاقي بمجرد أن ظهر على ساحل البحر الأحمر في بداية القرن السابع الميلادي، وسار بخطوات منتصرة نحو الشمال والجنوب ونحو الشرق والغرب، حتى إنه

(١) راجع مدخل إلى القرآن الكريم، ٦٠-٦١

(٢) راجع مدخل إلى القرآن الكريم، ٦٢

في فترة قصيرة نسبياً انتشر في نصف العالم المعروف في ذلك الحين،

ولا يزال هذا الحدث التاريخي الجليل الذي لا مثيل له على مر الزمان يثير اهتمام الإنسانية جمعاء، كما أثار فضول مؤرخي الأخلاق والأديان، فقد تغير كل شيء بمجيء الإسلام بين يوم وليلة، ولم يقتصر هذا التغيير على الواجهة السياسية والاقتصادية في المدن الكبرى فقط، وإنما تغلغل في الأعماق النفسية للشعوب التي انضوت تحت لوائه، فاللغات والأفكار والقانون والآمال والعادات وتصور العالم والإلوهية، كل ذلك قد طرأ عليه تغيير جذري سريع [١] . ولم يقتصر تأثير هذا الغزو الفكري على اجتذاب النفوس التي آمنت به، بصفة دائمة، بل إنه كان يترع دائماً إلى الانتشار وكسب الأتباع كلما أتيحت الفرصة لكي يظهر في بساطته ونقائه الفطريين،

وبعد أن يؤكد على أن هذه الحقيقة تتعارض مع هذه الشبهة التي تلوكها الألسنة يتساءل الدكتور دراز؛ أليس التأثير الذي يمارسه على النفوس في الوقت الحاضر دليلاً ملموساً على أن له قوة ذاتية وتوافقاً فريداً مع الطبيعة البشرية وحقائق الأشياء [٢] .

وبمعنى آخر يقول: إن كل بنيان مزيف إذا عاش برهة من الزمان بفضل القوة التي تسانده، لا بد وأن ينهار حين تختفي من حوله العناصر الغريبة عليه، والتي ساعدت على بقائه قائماً، فماذا نرى اليوم بعد اثني عشر قرناً من الدهر الطويل، وبعد توقف التوسعات الإسلامية؟ ويجيب بأن هذه المبادئ المنتشرة بين شعوب جد مختلفة في الجنس واللغة واللون والمناخ من الصين إلى مراكش، ومن ليتوانيا حتى الموزمبيق، والتي تمثل أكثر من سدس سكان العالم (كان هذا في وقته) هذا البناء الاجتماعي الذي تعرض طوال التاريخ المديد إلى عناصر التدمير الداخلية والخارجية، لم يفقد شيئاً كثيراً من

---

(١) واستشهد الدكتور دراز على ذلك الفرق بين ما أحدثه الإسلام وبين الفتوحات التاريخية الأخرى بكتاب ((الاستعمار المقدوني وحركة تحويل الشرق إلى القومية اليونانية)) وكتاب ((أخلاق وعادات المسلمين))

(٢) راجع مدخل إلى القرآن الكريم، ٥٢-٥٤

مظهره، ولم يخسر شيئاً على الإطلاق من جوهره، ورغم عدم استقرار الأحوال السياسية، فالبناء الديني والأخلاقي لا يزال منصوباً على قوائمه، وثابتاً في صلابة بحيث قيل بحق؛ إنه لم يحدث منذ بداية الهجرة أن مسلماً قد تحول عن دينه إلى دين آخر".

ويؤكد الدكتور دراز على أن المسلمين اليوم غير مستعدين للتخلي عن عقيدتهم من أجل اتباع أية ديانة أخرى، ويتساءل: أليس مما يناقض القوانين النفسية، أن ننسب هذا التمسك الوثيق بهذا الدين من جانب المسلمين إلى نوع من الاستسلام الوراثي يرجع أصله إلى نوع من الإكراه الذي وقع على آبائهم الأوليين، وأن المسلمين لا يزالون يحتفظون بذاكرة منقوشة في أعماق تركيبهم الذهني؟

ويجيب بأنه لا جدال في أنه يتحتم علينا أن نسلم بوجود بعض الصفات الذاتية التي مكنت للإسلام من هذا الانتشار، ومن هذا الثبات ، رغم البعد عن تاريخ مولده [1] .

وفي بحثه عن مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام يذكر أن كلنا يعرف أن محمداً عليه الصلاة والسلام لبث زهاء عشر سنين في اتصال دائم بأمم وديانات مختلفة، معادية طوراً ومسالمة طوراً، وطبيعي أن هذه الظروف الخاصة التي جعلت للإسلام سلطاناً زمنياً وحكماً عالمياً– إلى جانب كونه عقيدة روحية، ومبدأ أخلاقياً – كانت تتقاضاه أن يضع تشريعاً لقانون السلم والحرب بين الأمم، وقد كانت إجابته لهذه الحاجة الملحة شافية لغلة المشرعين، مرضية للضمائر السليمة لدى الحكماء وذوي الخلق الكريم. وليس لمكابر أن يدعي أن الإسلام إنما حمل السلاح لفرض عقيدته، وهذا هو مبدأه: ((لا إكراه في الدين)). وليس لهذا المكابر أن يدعي أن فكرة الفتح والتوسع كانت مسيطرة على المسلمين، وهذه هو مبدأه أيضاً. ((تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً)) إن الحرب المشروعة في الإسلام هو ((الحرب الدفاعية)). ويجمل بنا أن نشير إلى أن كلمة الدفاع ينطوي تحتها نوعان، قد أشار القرآن

---

(١) راجع المصدر السابق، ٦٦–٦٧

إلي كليهما.

١ – الدفاع عن النفس. وفيه يقول الكتاب المجيد: ((أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله))

٢ – الإغاثة الواجبة لشعب مسلم أو حليف عاجز عن الدفاع عن نفسه: ((وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوالدان الين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً))

من هنا نرى أن الحرب في نظر الإسلام شر لا يلجأ إليه إلا المضطر، فلأن ينتهي المسلمون بالمفاوضة إلى صلح مجحف بشيء من حقوقهم، ولكنه في الوقت نفسه يحقن الدماء، خير من انتصار باهر للحق تزهق فيه الأرواح. وإن لنا في موقف الرسول في غزوة الحديبية لنموذجاً حسناً لهذا الروح العالي في التسامح والصفح، حرصاً على السلام من جانب الطرف الأقوى، فهو لم يكتف بالرجوع مع جيشه من حيث أتوا، وبتأجيل ما كانوا أجمعوا على أدائه في ذلك العام من المناسك ((زيارة الأماكن المقدسة))، ولم يكتف بأن رضي بتجريد اسمه في نصوص الهدنة من كل لقب تشريفي هو أهله، ولكنه فوق ذلك كله قبل مختاراً مقترحات الهدنة التي لا يعامل فيها الطرفان على قدم المساواة، بل تخول الأعداء حقوقاً لا تخولها المسلمين.

ولم تكن لترجح كفة الحرب في نظر قائدهم الأعلى، ولم تكن لتعدل به عن طريق السلام الذي يحفظ به دماء الناس وأرواحهم. ولنستمع له حين يقول مصمماً في جواب السائلين له عن السر في هذا العدول عن مكة: " والله لا تدعوني قريش إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم.إلا أعطيتهم إياها".

إن القرآن حين أباح الحرب الدفاعية المشروعة قد ميز تمييزاً واضحاً بين المحاربين

وغير المحاربين، فأمر بألا يقاتل إلا المقاتل، ولا بد أن نفهم من كلمة المقاتلين: أنهم الذين يحضرون في ميدان القتال بالفعل، ويستخدمون فيه قوتهم العدوانية.ولقد استرشد التشريع الإسلامي بتعاليم النبوة في هذه الشأن فحدد هذا الشرط على وجه يزيل كل لبس، ويكفل إبعاد شرور الحرب عن الضعفاء، ويجنب المدنيين كل ويلاتها، فالأطفال، والشيوخ، والنساء، والمرضى، والمعتوهون، بل حتى الفلاحون في حرثهم، والرهبان في معابدهم، كل أولئك معصومون بحصانة القانون من أخطار الحروب.

ثم يلفت الدكتور دراز نظرنا بوجه خاص في هذا المقام إلي حرص الإسلام – لا على حماية هؤلاء الضعفاء من الأضرار المادية فحسب– بل على حمايتهم أيضاً من التعرض لكل ألم نفسي لأن الإسلام يهدف إلى إيجاد العلاقات الطيبة مع أبناء البشرية جميعاً.

ويبين أن من القواعد الأساسية للحرب في نظرة الإسلام أنه كان يأبى فرض حصار يرمي إلى حبس الطعام عن مدن الأعداء ، ويوجب حصر العمليات الحربية في الأهداف العسكرية، بالنهي عن استعمال الأسلحة البعيدة المدى ، وخاصة كل وسيلة عامة للتدمير كالتفريق والتحريق ، ويستنكر تلك العادة الهمجية التي يشيع استعمالها في أثناء الحروب ، ألا وهي تعذيب الأعداء ومعاملتهم بالقسوة والخشونة.

ثم إننا نجد تعاليم الرسول التي كان يوجهها إلى قواد حملاته الحربية زاخرة بنصائحه لهم على التزام النظام وحسن السلوك في قتالهم. ومن بين هذه النصائح تحذيره المتكرر لهم من السلب، والنهب، والقتل غدراً، والتمثيل بجثث القتلى.

ولقد بلغت به دقة تطبيقه لحكم القرآن الذي يأمر بالعفو عن الأعداء متى انتهوا عن عدوانهم، أن نهى عن تعقب من يفر منهم من الحرب؛ فما بالك بمن يلقي سلاحه ويتقدم إلينا في صراحة بعبارات السلام والاستسلام؟ إن القرآن ليحرم علينا إيذاءه تحريماً قاطعاً، حتى لو كان ذلك بحجة الشك في صدق إيمانه. ((ولا تقولوا لمن ألقى

إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا)).

تلك كلها أدلة ملموسة على أن الإسلام لا يرمي قط إلى القضاء على أعدائه، ولا إلى الاستيلاء عليهم بالقهر، ولكن إلى تجنب خطرهم، فمتى تحقق هذا الغرض لم يبق للصراع في نظره مبرر، لأن هدفه إيجاد العلاقات العامة مع الناس قاطبة.

ثانياً: شبهتهم حول تعدد أزواجه – صلى الله عليه وسلم– والرد عليها :

عنى الدكتور دراز بالدفاع عن النبي– صلى الله عليه وسلم–، ودحض ما أثير حوله من شبهات، و نقض ما ألصق به من مفتريات، فخصص فصلاً كاملاً في رسالته عن حياة الرسول قبل البعثة، ومهد له بقوله: " نظراً للارتباط الوثيق بين الرسول ورسالته، ولأن هذا الكتاب يقصد– الرسالة الفرعية في الدكتوراه– موجه أساساً إلى أوساط بعيدة عن تاريخ حياة الرسول العربي، سوف نبدأ بتقديم صورة مصغرة لشخصية محمد منذ طفولته حتى الوقت الذي كلف فيه ببعثته للبشر كافة [١] .

وبعد أن قام الدكتور دراز بإلقاء نظرة تاريخية عابرة على طفولة النبي الكريم وشبابه حتى بداية بعثته، انتهى إلى أن كل ما يمكننا معرفته عن حياته قبل البعثة ينحصر في خط أساسي وهو أنه كان علي درجة ممتازة من الأخلاق، فلقد عرف في شبابه بين مواطنيه باسم ((الأمين)) كما يحدثنا مؤرخوه ، وفي مشاغله اليومية لم يرتكب عملاً يشينه ، ولم يشترك في عبادة الأوثان، وطبقاً لما يقول أعداؤه، فإنه لم يكذب أبداً ، وأشار إلى الشهادة النموذجية التي قدمها أبو سفيان زعيم المعسكر المناوئ للإسلام، والذي لم يعتنق الإسلام إلا بعد عامين من هذه الشهادة التي استخلص منها الإمبراطور هرقل أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله [٢] .

---

(١) راجع مدخل إلى القرآن الكريم ٢١–٣٢

(٢) ويشير الدكتور دراز بذلك إلى الاستجواب الدقيق الذي أجراه هرقل لزعيم قريش أبي سفيان، وبين أن هذا الاستجواب منهجي وكله ذكاء وحكمة ويستحق النقل، ولذلك قام بنقله في هامش كتابه (راجع مدخل إلى القرآن الكريم، ١٦٥–١٦٧، وصحيح البخاري، كتاب الجهاد ١٠١)

وفيما يتعلق بما أثير حول تعدد أزواجه من شبهات، يذكر الدكتور دراز أن هذه النقطة تكاد تمس من بعيد موضوع دراسته، وهو القرآن الكريم، لا شخصية الرسول عليه السلام، لكن من ناحية أخرى بما أن القرآن لا يتوانى في إلقاء الضوء على حياة رسوله الخاصة، فسوف نرى كيف تبدو حياته من خلاله:

تبدو شخصية الرسول- صلى الله عليه وسلم- في القرآن محددة بخطوط ثلاثة: الشعور والإرادة والإيمان، فهو بطبيعته بشر كما كان حال من سبقه من المرسلين، يقول تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧-٨] وهو يأكل الطعام ويسعى في كسب رزقه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠] وله مثل – بعض الرسل- زوجات وذرية ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد:٣٨] ، فضلاً عن أنه يقدر الجمال الإنساني: ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢]

ثم يذكر أنه لما كان هناك اتفاق على تحديد الحاسة الخلقية بأنها ليست في انعدام الشعور، بل في السيطرة على الأهواء الذاتية، وجب أن نأخذ في اعتبارنا العامل الثاني وهو الإرادة، وهنا نراه عليه السلام يتمتع بقدرة على الامتناع، بلغت من قوتها أنه يستطيع أن يحرم على نفسه المباح من الطعام لمجرد عدم إثارة سوء تفاهم ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ [التحريم:١] ولقد قالت عنه عائشة إنه لم يوجد مثله في التحكم في حواسه (البخاري: كتاب الصوم، باب ٢٣)

ثم يأتي أخيراً موضوع خضوعه المطلق لتعاليم الله تبارك وتعالى التي تعلو على نظرته وميوله. ويذكر الدكتور دراز بهذه المناسبة القاعدة القرآنية التي تحدد له فئات النساء اللاتي يستطيع أن يتزوج منهن يقول تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ

إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠]

والقاعدة الأخرى التي جاءت في وقت آخر لتحرم عليه صراحة عقد أي زواج جديد مهما كانت قوة رغبته فيه، ولا أن يتبدل بزوجاته زوجات أخر يقول تعالى: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٢] (١) .

ثم يذكر الدكتور دراز أن هذه السلسلة من القواعد قد بلغت ذروتها في حالة مطلقة زيد (ابنه بالتبني) وهي الزيجة الوحيدة المنصوص عنها في القرآن حيث يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب:٣٧]

فنرى رسول الله– صلى الله عليه وسلم – يحاول بكل جهده أن يمنع إتمام هذا الزواج، ولكن قانون القرآن– فيما يقول الدكتور دراز يفرضه عليه فرضاً ليضع حداً (ليس فقط بالنص كما كان الرسول يرجو، وإنما بالتطبيق العملي أيضاً) لنظام تبنى الأطفال في الوثنية الذي كان يقضي بالتماثل بين الابن المتبنى والابن الشرعي ، وهو ما يمكن تسميته حرفياً ؛ الزواج بدافع الواجب، رغم أي شعور معارض (٢) .

وإذا بحثنا الظروف التي عقدت فيها زيجاته الأخرى، نجد أن أغلبها فرضت عليه– ليس بدافع من ضرورة تشريعية مشابهة– وإنما لاعتبارات إنسانية سامية مثل مواساة وتشريف زوجة شهيد أو مهاجر مات بين أصحابه في هجرته (ولعله يقصد

---

(١) راجع مدخل إلى القرآن الكريم، ١٥٣

(٢) راجع المصدر السابق، ١٤٥، وقد سبق أن قدمت بحثاً إلى الندوة التي أقامتها كلية الشريعة– جامعة الشارقة– عام ٢٠٠٥ بعنوان ((جهود العلماء المعاصرين في دفع شبهات المستشرقين والمنصرين حول زواجه صلي الله عليه وسلم بزينب بنت جحش))

زواجه – صلى الله عليه وسلم– مثلاً من أم سلمة رضي الله عنها، أو توثيق بعض الروابط القبلية بين القبائل التي تعاهد معها، أو إيجاد جو مناسب لعتق أسرى قبيلة بأكملها (وقد كانوا بالفعل في أيدي المسلمين، وأعتقهم المسلمون في الحال نظراً لقرابتهم الجديدة برسول الله– صلى الله عليه وسلم–) الخ [١] .

ولذلك فإن الدكتور دراز حينما تحدث عن السيدة خديجة أم المؤمنين في موضع آخر ذكر أنها هي الزوج الأولى للرسول، تزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وهي بنت أربعين، وجاءت منه بكل أولاده خلا إبراهيم، وآمنت به في أول من آمن ، وآزرته، وواسته بنفسها ومالها، وكانت له نعم الرفيق حتى توفيت بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين ، وسنه عليه السلام خمسون سنة، فتزوج بعدها سودة بنت زمعة القرشية، ثم لم يجمع في بيته إلا امرأتين بعد الهجرة بسنة ونصف حيث تزوج السيدة عائشة أيضاً وهو إذ ذاك في الخامسة والخمسين من عمره

ويتساءل قائلا : أقتراه – صلى الله عليه وسلم– بعد ما قضى زهرة شبابه وكهولته في أحضان زوج واحدة عجوز ثيب، فلم يبغ بها بديلاً، ولم يضم إليها غيرها حتى لقيت ربها، يصبح وقد انتصف العقد السادس من حياته ، ودخل في سن الشيخوخة أسيراً للشهوة الجنسية، مستكثراً من الحظوظ النفسية؟

ويجيب بقوله: إن هذا لا يدخل في خيال عاقل، ولا بد هناك من سر آخر يعرفه من عرف الظروف والتواريخ التي تزوج فيها بتلك الأزواج.

وبيانه على الإجمال أن ذلك كان منه قياماً بأمر الله وإقامة لدين الله، وتحقيقاً لمصالح سياسية وتشريعية يضيق المقام عنها هنا، فاعرف ذلك ولا تكن من الجاهلين،

---

(١) راجع المصدر السابق، ١٥٤ ويقصد بذلك زواجه– صلى الله عليه وسلم– بالسيدة جويرية بنت الحارث التي ما من امرأة أعظم على قومها بركة منها ، أعتق بزواجها من رسول الله– صلى الله عليه وسلم– أهل مائة بيت من بني المصطلق

ولا يغرنك الشيطان فتهلك مع الهالكين [١] .

فإذا ما عدنا إلى كتابه ((مدخل إلى القرآن الكريم)) نجده يقول : ((ولكن هل يجب أن يكون الإنسان مؤرخاً لكي يستطيع أن يحكم على الطابع الأخلاقي لرجل عاش شبابه في العفاف المطلق، وبعد زواجه عاش مع زوجته الوحيدة بإخلاص ما يقرب من ثلاثين عاماً، وأنه لم يشرع في زواجه الثاني [٢] إلا وقد بلغ الخامسة والخمسين؟

ثم يضيف الدكتور دراز أمراً أخيراً ينبغي أن يوضع في الاعتبار لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ألا وهو النظر في مشاغله وانشغالاته في أعبائه وهمومه المختلفة العامة منها والخاصة : مثل إقامة الصلوات الخمس : منذ الفجر حتى العشاء، وتعليم القرآن، وتوزيع الصدقات العامة، والفصل في المنازعات، ومقابلة الوفود، ومراسلة الملوك والحكام، وقيادة المعارك العسكرية، وسن التشريع، وتأسيس الدولة... الخ ، وباختصار العناية بكل شيء، وبكل الناس، ثم بعد ذلك قيام الليل راكعاً أو ساجداً أو قائماً، متوجهاً إلى السماء.

ويستشهد على ذلك بأقوال عائشة وأمهات المؤمنين عن استخدامه لوقته بالليل، حيث يقلن إنه كان يهجر النوم كل ليلة ليستغرق في صلواته الطويلة ، أحياناً يقوم حتى تتورم قدماه (البخاري: كتاب التهجد، الباب السادس) أو ساجداً حتى يظن أنه قبض (البيهقي ورد في أنوار النبهاني، ص٥٢٢) ، وأحياناً كان يذهب إلى المقابر ليصلي على أرواح الموتى (مسلم، كتاب الجنائز، الباب ٣٥) ، كل هذا يثبت أن تقوى الرسول وورعه واستقامته كانت تزيد وتقوى في المدينة بدلاً من أن تنقص .

---

(١) راجع كتابه المختار من كنوز السنة ،٢٠-٢١ تقديم بخارى أحمد عبده، دار الأنصار، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م

(٢) الواقع أنها خطبت له قبل الهجرة بقليل، وهذا يثبت أن مبدأ تعدد الزوجات يرجع إلى تاريخ قديم، ولم يكن نتيجة مبدأ جديد في الأخلاق قد بزغ في جو المدينة كما يزعم الزاعمون

أهم نتائج البحث

إبراز دور العلامة الكبير المحقق فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز (١٨٩٤/١٩٥٨) م (١٣١٢/ ١٣٧٧) هـ في الحوار مع الآخر ، وبيان منهجه في البحث والمعالجة ، وطريقته في مناقشة الغربيين ، من المستشرقين والمبشرين وغيرهم، ومجادلتهم بالتي هي أحسن ،

بيان ما توصل إليه العلامة الدكتور دراز من نتائج وذلك من خلال ما كتبه وقدمه من بحوث في مرحلة الدكتوراه التي حصل عليها من جامعة السوربون ، بعد أن أعد نفسه إعدادا علميا ، وتهيأ لهذه المرحلة تمام التهيؤ ، ومن خلال ما أسهم به من مشاركات فعالة في المؤتمرات العالمية ، والندوات الدولية ،

إبراز دوره ونشاطه في مجال هذه المؤتمرات الدولية ، حيث ألقي مثلا كلمة الأزهر ممثلة للإسلام في مؤتمر الأديان بباريس عام ١٩٣٩، فتحدث عن السلام في الإسلام ،واعتبرت الكلمة الرئيسة والأولي في المؤتمر، وختم حياته الحافلة كذلك بتمثيله للأزهر في الندوة العالمية ، التي عقدت بلاهور بباكستان في جمادي الآخرة ١٣٧٧/ يناير ١٩٥٨، فقدم فيها بحثا بعنوان (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها)

بيان دور الدكتور دراز في الحوار مع الآخر من خلال دفع الشبهات، ودحض المفتريات: فقد عنى الدكتور دراز عناية تامة، واهتم اهتماماً بالغاً، بالدفاع عن الإسلام ورسول الإسلام، فعرض لكثير من الشبهات والمفتريات التي رددها الكتاب الغربيون في دراساتهم كأنها مسلمات، وتوارثوها عن أسلافهم، الذين نفثوها ونفخوا فيها، فقام بدرء هذه المفتريات، ودحض تلك الشبهات،

وانتهي الدكتور دراز إلي أن الحرب في نظر الإسلام شر لا يلجأ إليه إلا المضطر، فلأن ينتهي المسلمون بالمفاوضة إلى صلح مجحف بشيء من حقوقهم، ولكنه في الوقت نفسه يحقن الدماء، خير من انتصار باهر للحق تزهق فيه الأرواح. وإن لنا في

موقف الرسول في غزوة الحديبية لنموذجاً حسناً لهذا الروح العالي في التسامح والصفح، حرصاً على السلام من جانب الطرف الأقوى، فهو لم يكتف بالرجوع مع جيشه من حيث أتوا، وبتأجيل ما كانوا أجمعوا على أدائه في ذلك العام من المناسك ((زيارة الأماكن المقدسة))، ولم يكتف بأن رضي بتجريد اسمه في نصوص الهدنة من كل لقب تشريفي هو أهله، ولكنه فوق ذلك كله قبل مختاراً مقترحات الهدنة التي لا يعامل فيها الطرفان على قدم المساواة، بل تخول الأعداء حقوقاً لا تخولها المسلمين.

بيان أن القرآن حين أباح الحرب الدفاعية المشروعة قد ميز تمييزاً واضحاً بين المحاربين وغير المحاربين، فأمر بألا يقاتل إلا المقاتل، ولا بد أن نفهم من كلمة المقاتلين: أنهم الذين يحضرون في ميدان القتال بالفعل، ويستخدمون فيه قوتهم العدوانية. ولقد استرشد التشريع الإسلامي بتعاليم النبوة في هذه الشأن فحدد هذا الشرط على وجه يزيل كل لبس، ويكفل إبعاد شرور الحرب عن الضعفاء، ويجنب المدنيين كل ويلاتها، فالأطفال، والشيوخ، والنساء، والمرضى، والمعتوهون، بل حتى الفلاحون في حرثهم، والرهبان في معابدهم، كل أولئك معصومون بحصانة القانون من أخطار الحروب.

انتهي الباحث إلي ما قرره الدكتور دراز حيث يلفت نظر الباحثين بوجه خاص في هذا المقام إلي حرص الإسلام – لا على حماية هؤلاء الضعفاء من الأضرار المادية فحسب– بل على حمايتهم أيضاً من التعرض لكل ألم نفسي لأن الإسلام يهدف إلى إيجاد العلاقات الطيبة مع أبناء البشرية جميعاً.

توصل الباحث إلي ما قرره الدكتور دراز من أن من القواعد الأساسية للحرب في نظرة الإسلام أنه كان يأبى فرض حصار يرمي إلى حبس الطعام عن مدن الأعداء ، ويوجب حصر العمليات الحربية في الأهداف العسكرية، بالنهي عن استعمال الأسلحة البعيدة المدى ، وخاصة كل وسيلة عامة للتدمير كالتفريق والتحريق ، ويستنكر تلك العادة الهمجية التي يشيع استعمالها في أثناء الحروب ، ألا وهي تعذيب الأعداء

ومعاملتهم بالقسوة والخشونة.

انتهي الدكتور دراز إلي أن تعاليم الرسول التي كان يوجهها إلى قواد حملاته الحربية زاخرة بنصائحه لهم على التزام النظام وحسن السلوك في قتالهم. ومن بين هذه النصائح تحذيره المتكرر لهم من السلب، والنهب، والقتل غدراً، والتمثيل بجثث القتلى. ولقد بلغت به دقة تطبيقه لحكم القرآن الذي يأمر بالعفو عن الأعداء متى انتهوا عن عدوانهم، أن نهى عن تعقب من يفر منهم من الحرب؛ فما بالك بمن يلقي سلاحه ويتقدم إلينا في صراحة بعبارات السلام والاستسلام؟ إن القرآن ليحرم علينا إيذاءه تحريماً قاطعاً، حتى لو كان ذلك بحجة الشك في صدق إيمانه. ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

بيان أن هذه الوقائع التاريخية تمثل كلها أدلة ملموسة على أن الإسلام لا يرمي قط إلى القضاء على أعدائه، ولا إلى الاستيلاء عليهم بالقهر، ولكن إلى تجنب خطرهم، فمتى تحقق هذا الغرض لم يبق للصراع في نظره مبرر، لأن هدفه إيجاد العلاقات العامة مع الناس قاطبة.

عنى الدكتور دراز بالدفاع عن النبي– صلى الله عليه وسلم–، ودحض ما أثير حوله من شبهات، و نقض ما ألصق به من مفتريات، فخصص فصلاً كاملاً في رسالته عن حياة الرسول قبل البعثة، ومهد له بقوله: " نظراً للارتباط الوثيق بين الرسول ورسالته، ولأن هذا الكتاب يقصد– الرسالة الفرعية في الدكتوراه– موجه أساساً إلى أوساط بعيدة عن تاريخ حياة الرسول العربي، سوف نبدأ بتقديم صورة مصغرة لشخصية محمد منذ طفولته حتى الوقت الذي كلف فيه ببعثته للبشر كافة.

بعد أن قام الدكتور دراز بإلقاء نظرة تاريخية عابرة على طفولة النبي الكريم وشبابه حتى بداية بعثته، انتهى إلى أن كل ما يمكننا معرفته عن حياته قبل البعثة ينحصر في خط أساسي وهو أنه كان علي درجة ممتازة من الأخلاق، فلقد عرف في شبابه بين

مواطنيه باسم ((الأمين)) كما يحدثنا مؤرخوه ، وفي مشاغله اليومية لم يرتكب عملاً يشينه ، ولم يشترك في عبادة الأوثان، وطبقاً لما يقول أعداؤه، فإنه لم يكذب أبداً ، وأشار إلى الشهادة النموذجية التي قدمها أبو سفيان زعيم المعسكر المناوئ للإسلام، والذي لم يعتنق الإسلام إلا بعد عامين من هذه الشهادة التي استخلص منها الإمبراطور هرقل أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وفيما يتعلق بما أثير حول تعدد أزواجه من شبهات، انتهي العلامة الدكتور دراز إلي أن هذه النقطة تكاد تمس من بعيد موضوع دراسته، وهو القرآن الكريم، لا شخصية الرسول عليه السلام، لكن من ناحية أخرى بما أن القرآن لا يتوانى في إلقاء الضوء على حياة رسوله الخاصة، فسوف نرى كيف تبدو حياته من خلاله

توصل الدكتور دراز إلي أن شخصية الرسول– صلى الله عليه وسلم– في القرآن محددة بخطوط ثلاثة: الشعور والإرادة والإيمان، فهو بطبيعته بشر كما كان حال من سبقه من المرسلين، يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧ – ٨] وهو يأكل الطعام ويسعى في كسب رزقه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٢٠] وله مثل – بعض الرسل– زوجات وذرية ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد : ٣٨] ، فضلاً عن أنه يقدر الجمال الإنساني : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٢]

وأخيراً فإن الدكتور دراز قد لمس جانباً هاماً من جوانب حياة المصطفى– صلى الله عليه وسلم– فيذكر أنه كان من فضل الله أن أحاطت بالرسول هذه النفوس الورعة التقية، لكي تنقل إلينا جانباً عظيماً من سنته، وبصفة خاصة ما يتعلق بتعليم النساء نصف البشرية، فضلاً عن استكمال الدليل على صدقه بشهادتهن عن أخلاقه الحقيقية العميقة في

حياته الخاصة ، حيث تنهار وتتساقط كل أقنعة النفاق المصطنعة

وانتهي رحمه الله إلى أن كل هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأن الباعث الحقيقي على الزواج هو شيء آخر بعيد كل البعد عن إرضاء الغريزة البهيمية.

فهرس المصادر والمراجع

أولاً – القرآن الكريم.

ثانياً – الحديث النبوي الشريف.

البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري)

١ – الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، قام بشرحه وتصحيح تجاربه وتحقيقه: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها– القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

بدوي (الأستاذ الدكتور: السيد محمد بدوي)

٢ – مقدمة لكتاب دستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز، مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة العاشرة ١٤١٨هـ– ١٩٩٨م.

البيومي (الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومي)

٣ – النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، دار القلم– دمشق، والدار الشامية– بيروت، الطبعة الأولي ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م.

دراز (الأستاذ الدكتور/ محمد عبد الله دراز)

٤ – دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، دار القلم– الكويت، ١٤٠٠هـ– ١٩٨٠م.

٥ – دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، ملحق بها تصنيف للآيات المختارة التي تكون الدستور الكامل للأخلاق العملية، تعريب وتحقيق وتعليق: د/ عبد الصبور شاهين، مراجعة: د/ السيد محمد بدوى، مؤسسة الرسالة– بيروت، ١٣٩٣هـ– ١٩٧٣م.

٦ – الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم– الكويت، الطبعة الثانية ١٣٩٠ه– ١٩٧٠م.

٧ – المختار من كنوز السنة النبوية شرح أربعين حديثاً في أصول الدين، تقديم: بخاري أحمد عبده، دار الأنصار– القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ– ١٩٧٨م.

٨ – مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن: ترجمة: محمد عبد العظيم علي، مراجعة د/ السيد محمد بدوى، دار القلم– الكويت، ١٤٠٤هـ– ١٩٨٤م.

٩ – موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها، بحث منشور ضمن كتاب: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم– الكويت، الطبعة الثانية ١٣٩٠ه– ١٩٧٠م.

الزغبي (الأستاذ الدكتور/ فتحي محمد الزغبي)

١٠– تأثر اليهودية بالأديان الوثنية، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية– طنطا– مصر، الطبعة الأولي ١٤١٤ه– ١٩٩٤م.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٨٨٢

التمهيد..... ٨٨٥

نبذة مختصرة عن مولد العلامة الدكتور دراز ونشأته وحياته ٨٨٥

المبحث الأول : جهوده في الحوار مع الآخر من خلال رسالته للدكتوراه..... ٨٩٠

المبحث الثاني : جهوده في الحوار مع الآخر من خلال مشاركته في مؤتمر الأديان العالمي بباريس ١٩٣٩م..... ٩٠٢

المبحث الثالث : جهوده في الحوار مع الآخر من خلال بحثه في الندوة العالمية للأديان : لاهور بباكستان (١٩٥٨) ٩٠٩

المبحث الرابع : جهوده في الحوار مع الآخر من خلال دفع الشبهات ودحض المفتريات . ٩١٨

أهم نتائج البحث..... ٩٣٠

فهرس المصادر والمراجع..... ٩٣٥

فهرس الموضوعات..... ٩٣٧